(الكتاب الثامن)

الفصل الأول

يتناول خروج السيد خوان دى أوستريا للإغــارة على نهــر المنصورة، وقيام ماركيز بلش برفع الحصار عن غاليرا.

كان لابد من تهيئة العديد من الأمور من أجل الحملة التى كان ينبغى على السيد خوان دى أوستريا القيام بها. تم تجهيز كميات ضخمة من المؤن فى القرى والمدن المتاخمة لغرناطة، وقد عُهِدَ بذلك إلى المجالس ذاتها، حيث أُرسِلت إليها نقود من أجل ذلك الغرض؛ وذلك لتجنب السرقات والرشاوى والاختلاسات التى كان المندوبون والحجاب التابعون للدوريات يقومون بها فى فجور رهيب، وعلى نحو يفوق بكثير ما يمكن لنا أن نسوقه فى هذا الموضع. ولَمَّا كان من الملائم ترك مدينة غرناطة مؤمنة، فقد عيَّن السيد خوان قبيل رحيله أربعة آلاف من جنود المشاة لحراستها. أسهم أولئك الجنود المكلفون بحراسة المدينة، علاوةً على وجود الموريسكيين خارج المملكة، وبسط سيطرتنا على مدينة غيخار، وعلى الغوطة ومن بها من حراس، بالإضافة إلى دوريات المراقبة التى كانت تجوب الأراضى، فى تأمين المدينة بشكل كاف؛ وحـ ظلت على تلك الحالة طوال المدة التى استغرقتها الحرب.

انطلق السيد خوان دى أوستريا فى اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر لعام ١٥٦٩، يرافقه ثلاثة آلاف من جنود المشاة وأربعمائة فارس؛ كما اصطحب معه لويس كيخادا، والأب بيربيسكا دى موناتونيس -عضو مجلس جلالة الملك- الذى كان يتولى حضور المجلس فى غرناطة بمقتضى أوامر جلالته. وقد عهد السيد خوان بأمر المدينة إلى دوق سيسا، إلى أن يحين وقت مغادرته لها مع الجيش الآخر؛ فما كان من

ذلك الأخير إلا أن انتقل من فوره إلى مقر السيد خوان، وشرع فى إصدار الأوامر - هو والرئيس معًا - فيما يتعلق بالمؤن والأشياء الأخرى الضرورية لتلك الحرب. توجه السيد خوان دى أوستريا فى اليوم الأول إلى بلدة حصن اللوز، التى تبعد مسافة خمسة فراسخ عن غرناطة. وفى اليوم الثانى توجه إلى وادى آش، التى يطلق عليها القدماء اسم أثيورخى Aciurge، ويسميها المسلمون غير عايش Guer Aix[1]. وقد ذهب فى اليوم الثالث إلى غور، حيث ألفى السيد دييغو دى كاستيبا وقد حبس كل موريسكيات البلدة فى القلعة، وذلك للحيلولة دون اصطحابهن إلى الجبال، وأيضًا من أجل أن يضمن عدم قيام الموريسكيين بالثورة. فى اليوم الرابع وصل السيد خوان إلى مدينة بسطة -التى كان يسميها المسلمون بطحة Batha[2]، ويطلق عليها القدامى بسطة Basta- والإقليم التى تقع به.

كان القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية فى انتظاره هناك، قادمًا من قرطاجنة، وقد أحضر معه قطع المدفعية، والأسلحة، والذخيرة، والمؤن -التى أشرنا إليها آنفًا. وكان قد التقى عرضًا مع ماركيز بلش، وقام بتزويده ببعض الأشياء التى طلبها مما كان فى حوزته. مكث السيد خوان دى أوستريا لأيام قليلة فى تلك المدينة، لينتظر قدوم الرجال ويتولى اتخاذ تدابير أخرى ضرورية، على ضوء الاستعجال الشديد الذى اتسمت به الأمور. من أجل التوجه للإغارة على غاليرا، كان لابد من نصب معدات الحرب فى غويسكار. لذا فقد أرسل السيد خوان أولاً -قبيل انطلاقه من المدينة بيومين- جميع العربات والأمتعة الموجودة بالجيش، بعد أن حملها بالمؤن والذخائر، وأصدر أمرًا بعودتها لاحقًا لكى تنقل ما تبقى لديه.

كانت كل تلك الإجراءات تتم فى إطار من الشكوك حول قيام ماركيز بلش -الذى أغضبته الفكرة التى خرج بها السيد خوان دى أوستريا- برفع الحصار المضروب على غاليرا، بمجرد معرفته بمغادرة السيد خوان لبسطة. وقد تصادف أن بعض الأشخاص،

---

(١) لم يتحدث المؤرخون المسلمون -فيما نعلم- عن أصل التسمية. (المراجع)
(٢) انظر الملاحظة السابقة. (المراجع)

الذين سمعوه يردد بعض الكلمات، قد نبهوا السيد خوان إلى الأمر؛ وهذا هو ما حدث. ففي الليلة التي تسبق خروج أولى مواكب الأمتعة، قام الماركيز بفض المعسكر، لكن الحظ العثر قضى أن يمكث فيه لأيام طويلة بعد ذلك، وتراجع إلى غويسكار، تاركًا المسلمين أحرارًا حتى يتمكنوا من الذهاب حيثما يحلو لهم. كان من الممكن أن نجابه خطر تدمير الموكب، الذي كان يضم ستمائة عربة وألفًا وأربعمائة حملاً من الأسلحة والذخائر، لو تم تنبيه المسلمين للانقضاض عليه؛ لأنه لم يكن يرافقهم على سبيل الحراسة سوى ثلاثمائة فارس، ولم يصحبهم أي من جنود المشاة.

كان ذلك الموكب في عهدتي[٣]. وعندما تنامى إلى علمي خلال الطريق أنباء تراجع ماركيز بلش، وأن المسلمين يجولون في حرية خارج أسوار غاليرا، لم أشأ أن أغامر بالمرور إلى أن يتم تزويدي بعدد أكبر من المقاتلين. وقد أويت في تلك الليلة إلى ضيعة مالاغون Malagín -الكائنة على نهر بن سُليمة Benzulema-، وقمت بتنبيه كل من السيد خوان دي أوستريا وماركيز بلش بالأمر، من أجل أن يؤمن لي العبور أحد أبراج المراقبة القريبة من غاليرا. وقد استكملت مسيرتي في الصباح الباكر من اليوم التالي، مع فرقتي مشاة -كانتا تعسكران في بني ماوريل- ، وكتيبة من الفرسان كان السيد خوان دي أوستريا قد بعث بها إليّ. وهكذا تم تأمين الموكب بعد تأخير نصف يوم. لدى بلوغ غويسكار في تلك الليلة، عاودت إرسال العربات والأمتعة الفارغة إلى بسطة. انطلق السيد خوان خوان دي أوستريا مع الجيش بأكمله، ليصل إلى غويسكار -التي تقع على مسافة سبعة فراسخ عبر الطريق المستقيم، بينما تبعد تسعة فراسخ عبر الدروب- في رحلة واحدة. لاقى الجيش مشقةً بالغةً خلال ذلك اليوم، لأن المسلمين أطلقوا السواقي، فغمرت المياه الغوطات كلها، التي تحولت إلى أراضي موحلة للغاية، حتى أن العربات والأمتعة لم يتسن لها المرور.

---

(٣) نذكر بأن المؤلف كان يرافق القوات بصفته مسئولاً عن الحسابات. لاحظ تداخل الاختصاصات، فمسئول الحسابات يقوم الآن بدور قائد يشرف على تحرك مقاتلين. (المراجع)

خرج ماركيز بلش لاستقبال السيد خوان دى أوستريا مع بعض الفرسان على بعد حوالى ربع فرسخ، بعد أن أمر خدمه أن يحزموا ثيابه - فى أثناء ذهابه وإيابه- لكى يتوجه إلى منزله؛ لأنه لم يكن قد أخلى بعد غرف القلعة التى كان يتعين أن يقيم بها السيد خوان دى أوستريا. وكان قد أخّر الأب سيمون دى سالاثار Simón de Salazar قاضى البلدة والمستشار فى مجلس مملكة قشتالة-، الذى كان قد حضر إلى هناك منذ ثلاثة أيام بغية إعداد محل الإقامة. لم يتمكن ماركيز بلش من إخفاء المشاعر التى انتابته تجاه مجىء السيد خوان دى أوستريا. على الرغم من أنه قد شوهد برفقة القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية، وهو يتحدث بكلمات طيبة، فقد كان يدرك جيداً أن السيد خوان لا يشعر نحوه بمشاعر الود، وأنه قد كتب إلى جلالة الملك يخبره بأن الماركيز لا يبدو فى نظره الشخص المناسب لإنهاء تلك المهمة.

كان الماركيز قد اطلّع على تلك الرسائل، قبل أن تصل إلى جلالة الملك، وتجاهل أنه على علم بها. كان ذلك هو الداعى وراء تحاشيه التواجد فى مجلس واحد معه أو مع لويس كيخادا؛ ولم يكن يرغب سوى فى الخروج لاستقبال السيد خوان دى أوستريا على سبيل المجاملة فحسب، ثم السير فى طريق العودة إلى منزله دون أن يترجل عن فرسه؛ وقد كان هذا ما قام به بالفعل. لأنه حينما دنا منه لكى يقبل يديه، ويهنئه على سلامة وصوله، رجع معه إلى بوابة الحصن وهو يقص على مسامعه الحالة التى وصلت إليها شؤون الحرب؛ ثم ودعه، هو وكل أولئك السادة الذين كانوا برفقته، دون أن ينزل عن صهوة جواده؛ وسلك طريق بلدة بلش البلانكو مع خاصته، وكتيبة من الفرسان تتبع شريش الفرنتيرة، كان يقودها السيد مارتين دى أبيلا.

الفصل الثانى

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على بلدة غاليرا، ومحاصرته لها.

فى أعقاب تزايد قوام الجيش، الذى بلغ تعداد أفراده اثنى عشر ألف رجل، أصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره إلى القائد فرانثيسكو دى مولينا -الذى كان قد حضر من مطريل امتثالاً لأوامره، لكى يخدم فى تلك الحملة- حتى يذهب برفقة عشر فرق مشاة للتمركز فى بلدة كاستييخا، التى تقع على مسافة فرسخ واحد من غاليرا، وكانت غير آهلة بالسكان. حيث كان من المهم أن نقطع على الأعداء ذلك الممر، لكونه المدخل الذى يتعين على قوات الإغاثة المجىء منه، كما أنه المكان الذى يمكن التراجع من خلاله. انطلق السيد خوان فيما بعد مع باقى أفراد الجيش، ليسلك طريق غاليرا فى اليوم التاسع عشر من شهر يناير من عام ١٥٧٠.

كانت تلك البلدة ذات موقع منيع للغاية، حيث تقع أعلى هضبة مكونة على هيئة السفن الشراعية[٤]. وكان فى أعلى نقطة بها -فى اتجاه الجنوب الشرقى- مبانى قلعة قديمة محاطة بصخور شديدة الارتفاع، يستعاض بها عن الأسوار المهدمة. كان المدخل إلى القلعة عبر القرية ذاتها، التى تشغل سطح القمة كله بالإضافة إلى سفوح الهضبة، وتأخذ شكل دائم الانحدار إلى الأسفل فى اتجاه الشمال الغربى، وصولاً إلى أحد السهول الصغيرة. توجد كنيسة فى الجزء الخارجى من السهل -على النحو الذى

(٤) كلمة غاليرا فى الإسبانية معناها سفينة، وهذا الشرح يوضح سبب تسمية البلدة بهذا الاسم. (المراجع)

أشرنا إليه آنفًا- وكانت تضم برجًا جديدًا شديد الارتفاع يشرف على السهل بأكمله؛ وكان يجرى بها نهر ينحدر من بلدة أورثى، حتى ينضم مجراه إلى نهر غويسكار، وتصب مياهه فى الجزء الأسفل من غاليرا، ليعدل مساره فيما بعد ويقترب من السهل الذى تقع به الكنيسة، وشيئًا فشيئًا يجرى فى اتجاه بلدة كاستييخا.

لم تكن البلدة محاطة بالأسوار، بيد أنها كانت جد منيعة، نظرًا لمدى وعورة السفوح الموجودة بين الأودية والمنازل، وصعوبة ارتقائها. كما كانت المنازل متلاصقة، مما شكّل من جدرانها دفاعًا كافيًا للتصدى لأى هجوم عنيف، وحائلاً يمنع إمكانية قصفها على نحو مجد، لأن بعض المنازل كانت مشيدة أعلى منازل أخرى على امتداد السفوح، بحيث صارت أسقف المنازل الأولى تضاهى أساسات المنازل الثانية. وقد تم إرساء القواعد على صخور صلدة، وظل البناء يعلو حتى بلغ أكثر القمم ارتفاعا. لهذا السبب باتت أسطح البيوت تتسم بقدر كبير من عدم الانتظام، فلم يكن بالإمكان الصعود أو الانتقال من سطح إلى آخر من دون سلالم طويلة. كما أن المسلمين قد أقاموا العديد من الترميمات والدفاعات فى الشوارع، فلم يكن أيضًا بمقدور أحد السير فيها دون التعرض للخطر.

كان هناك شارعان رئيسيان صاعدان من بوابة القرية المشرفة على الكنيسة إلى القلعة. إضافةً إلى كونهما ضيقين للغاية، فقد أحكم المسلمون تحصينهما، بحيث وُضِعت المتاريس على بعد خمسين خطوة من بعضها البعض؛ كما تم إقامة الكثير من الحواجز الوقائية عند أبواب وحوائط المنازل من كلا الجانبين، لكى يتسنى لهم إلحاق إصابات بمن يعبر الطريق دون أن ينالهم أذى. وحتى يتاح لهم إغاثة بعضهم بعضًا فى وقت الحاجة، فقد ثقبوها وأحدثوا فيها فتحات صغيرة -تتسع بالكاد لمرور شخص عبرها على يديه وقدميه. وهكذا فإنه على الرغم من عدم وجود أسوار، لم تكن المدينة أقل مناعةً -على ضوء ما أُقيم بها من تحصينات- مما كانت ستصبح عليه فى حال وجود أسوار شديدة الضخامة. لمّا لم تكن هناك آبار أو عيون ماء داخل البلدة، فقد حفر المسلمون نفقًا مغطى من المنازل السفلية حتى النهر، حيث كانوا يخرجون فى جميع الأوقات للتزود بالمياه، دون أن يقدر أحد على التصدى لهم.

كان لزامًا على السيد خوان دى أوستريا أن يضرب حصاراً على تلك البلدة المنيعة، التى كان بها ما يزيد على ثلاثة آلاف مسلم مقاتل، من بينهم عدد من الأتراك والمغاربة. قبل أن يقوم السيد خوان بصف جيشه، أراد أن يتفقدها بذاته، فاصطحب معه القائد العام لقوات قشتالة، والسيد لويس كيخادا، وسلاح الفرسان بأسره، وعدداً من الجنود البواسل من حملة البنادق، وطافوا حول البلدة عبر بعض الروابى التى تطل عليها من بعيد. فى أثناء وجودهم على إحدى القمم -التى يمكن كشف المحل منها بصورة أفضل- أدرك المجتمعون أنه من أجل فرض حصار محكم على البلدة، ينبغى تقسيم الرجال إلى ثلاث مجموعات، ونصب أسلحة المدفعية فى ثلاثة مواضع : واحدة باتجاه الجنوب عند منطقة القلعة، وأخرى باتجاه الشرق حيث يوجد أحد الموانع تخترق البلدة بميل، والثالثة باتجاه الشمال عند الكنيسة. أمر السيد خوان الجيش بأن يعسكر فى بقعة ترتفع قليلاً عن الموضع الذى كان يشغله جيش ماركيز بلش، حتى يتاح للرجال إغاثة تلك الثكنات على نحو أفضل، ولكى يضحى المعسكر أكثر ملائمةً للسكنى. أصبح الجيش تحميه إحدى الروابى الكائنة فى اتجاه الشرق بالقرب من النهر، وتؤمنه من نيران الأعداء. كما أصدر السيد خوان أوامره إلى القائد الميدانى السيد بدرو دى باديّا لكى يتمركز مع من بحوزته من وحدات الجيش الإسبانى فى المنطقة الشمالية أسفل الكنيسة؛ وهكذا باتت المدينة محاصرة من جميع الاتجاهات.

فى نفس ذلك اليوم توفى الأب بيربيسكا دى مونياتونيس فى غويسكار لمرض ألم به. وقد سادت الجيش مشاعر الأسى إثر وفاته، لأنه كان رجلاً مغواراً وراجح العقل، وكان قد قضى فترات طويلة خارج تلك الممالك فى خدمة الامبراطور المسيحى كارلوس، وأجاد فى تأدية المهام التى أوكلت إليه؛ كما كان متمرسًا للغاية وخبيراً فى شئون الحرب والحكم.

الفصل الثالث

يتناول كيفية نصب أسلحة المدفعية في مواجهة بلدة غاليرا، وتنفيذ هجومين عليها: أحدهما على الكنيسة والآخر على البلدة.

كان الأعداء لا يزالون يسيطرون على الكنيسة وبرج الناقوس. ولمّا كانوا يلحقون أضرارًا بجبهة السيد بدرو دى باديًا عبر نيران بنادقهم، وكان من الملائم المبادرة إلى إخراجهم من هناك، فقد أمر السيد خوان دى أوستريا أن يسعى فرانثيسكو دى مولينا -الذى كان يشغل بالفعل منصب قائد المدفعية، بعد أن حل محله نائب مجلس بلدية أبدة السيد ألونسو بورثيل دى مولينا Alonso Porcel de Molina فى التوجه إلى كاستييخا- فى المقام الأول وقبل كل شىء إلى أن يجلب من غويسكار أسلحة المدفعية التى وردت إليها من قرطاجنة وكانت فى عهدة دييغو باثكيث دى أكونيا، وأن يقصف الكنيسة والبرج بنيران المدفعية. وقد أظهر القائد همة عالية فى تنفيذ ما أُمِرَ به، حتى أنه فى ليلة واحدة أنشأ خطًا من غويسكار إلى غاليرا، وأنشأ معبرين خشبيين على النهر استخدمتهما عربات النقل فى عبور النهر، علاوةً على منصة مغطاة ومزودة بالقفف المملوءة بالتراب والأغصان لحماية الجنود. وقبيل بزوغ الفجر بدأ القصف بمدفعين من الطراز الثقيل.

فى أعقاب إطلاق عدة قذائف، حدث ثقب مرتفع وليس بالكبير فى الحائط. فاجتمع مع السيد بدرو دى باديًا كل من ماركيز فابارا والسيد ألونسو دى لوثون Alonso de Luzón وآخرون غيرهم من الفرسان البواسل، وشنوا هجومًا على البلدة، واقتحموا المحل بعد قتل المسلمين الذين كانوا يدافعون عنه، وقد لحقت خسائر

بصفوف المسيحيين. دخلت كتيبتان من حملة البنادق إلى البرج، وحاصرتاه بحيث تمكن الجنود من خلاله من بلوغ المكان بمنأى عن نيران الأعداء. فيما بعد تم البدء فى تنفيذ خندق آخر فى المنطقة الجنوبية، بحيث ينزل إلى أسفل السفح، ويأخذ فى الالتفاف حتى يبلغ الوادى القريب من القلعة. وهناك أقيمت منصة أخرى، وتم نصب ست قطع مدفعية بغرض قصف المنازل الكائنة خلفه، والتى تقع فوق الطمى الذى يحيط به من الخارج. اعتنى السيد خوان دى أوستريا ذاته بتلك المهمة فى حرص بالغ، حيث كان جنديًا وقائدًا عامًا فى وقت واحد. كان من الضرورى الذهاب للبحث عن الحلفاء -التى تدخل فى إعداد الخنادق الترابية- فى ربى بعيدة بعض الشىء، نظرًا لأن الأعداء كانوا قد أحرقوا ما تواجد منها على مقربة من المكان؛ من أجل حض الجنود على القيام بذلك العمل، تقدم السيد خوان الجميع، وجلب حزمته وهو يحملها على كاهله -كشأن الجنود- حتى أودعها فى الخندق. علاوةً على تلك المنصة، فقد تم نصب منصة أخرى تضم عشر قطع مدفعية عند العائق الذى ذكرناه آنفًا -والذى يخترق البلدة بميل عند المنطقة الشرقية-، ليتم من خلاله قصف المنازل وبعض الأسوار الضخمة القديمة التابعة للقلعة، وتجريد الأعداء من دفاعاتهم، وذلك عن طريق هدم المبانى على رؤوسهم فى أثناء شن الهجوم باستخدام أسلحة المدفعية الأخرى. حيث لم يكن هناك مكان يهجمون منه، بسبب وجود واد بالغ العمق وشديد الوعورة فى المنتصف.

بينما الأمور تسير على تلك الوتيرة، لم يخل المشهد من وجود آراء متحمسة باتت تلح فى الطلب على السيد خوان حتى يأمر جبهة بدرو دى باديًا بشن هجوم. حيث قالوا إنه طالما أن أهالى غويسكار كانوا قد دخلوا عبر تلك المنطقة حتى وصلوا بالقرب من الساحة، فإن جنودنا سيقومون بالأمر ذاته؛ كما أن الظفر ببعض المنازل من الموريسكيين، وحملهم على التراجع إلى الأماكن المرتفعة، سيكون أمرًا على قدر كبير من الأهمية. وقد بدا وكأن ذلك النصح سديد إلى حد ما، استنادًا إلى ما كان يمكن رؤيته من الخارج، لأن كل المنازل الموجودة أمام الكنيسة كانت مشيدة من الحجر المدقوق، ولم يكن بمقدورنا مشاهدة أى دفاعات أخرى. بيد أنه إبان الولوج إلى

الداخل، ألفينا التحصينات مقامة على نسق يختلف للغاية عما بدا لنا، حيث لم تتمكن أسلحة المدفعية من أن تنالهم بأذى، ولم يتسن لرجالنا المضى قدمًا؛ بينما استطاعوا هم إحداث خسائر فادحة بين صفوف من يتوافدون عليهم، وذلك عن طريق إطلاق البنادق وإلقاء الحجارة من أماكن مرتفعة، وهم مؤمَّنون بغطاء على الدوام.

تم تنفيذ ذلك الهجوم غير الموفق فى أعقاب إحداث المدفعية لبعض الفتحات فى الحوائط. حينما ألفى القادة والجنود العقبات المذكورة، إلى جانب إظهار الأعداء لمقاومة مستميتة، اضطروا إلى التراجع وقد لحقتهم خسائر، بعد أن ظلوا يقاتلون لفترة طويلة. وقد خلفوا وراءهم العديد من الرجال البارزين -ممن ألحوا على أن يكونوا فى الطليعة- محاصرين. كان من بين هؤلاء السيد خوان باتشيكو -أحد فرسان رهبانية القديس سانتياغو، الذى ينتمى إلى بلدة تالابيرا دى لا ريينا Talavera de la Reina- الذى كان الأعداء قد أسروه؛ وحينما شاهدوا شعار الرهبانية الذى كان يحمله على صدره، قاموا بتمزيقه إربًا إربًا فى غضب عارم. كان ذلك الفارس قد وصل إلى الجيش قبيل شن الهجوم بساعتين، ولم يكن قد قام بأى شىء سوى تقبيل يدى السيد خوان دى أوستريا فى الخندق؛ ليهبط بعد ذلك من أجل زيارة السيد بدرو باديًا -الذى كان قريبًا له، وأحد مواطنى بلدته. وعندما وجدهم يرغبون فى المبادرة بالهجوم، أراد أن يكون برفقته؛ وقد أمعن فى التقدم، مما جعله غير قادر على التراجع لمَّا حان الوقت.

الفصل الرابع

يتناول الكيفية التى تم بها شن هجوم أخر على بلدة غاليرا، ووفاة العديد من الرجال البارزين.

لم يقم السيد خوان دى أوستريا بتغيير أى من الأمور فى أعقاب ذلك الحادث الأليم. بل إنه لدى رؤيته لضآلة التأثير الذى أحدثه قصف المدفعية فى المنازل، وأنه لم يسفر سوى عن ثقب الحوائط الترابية؛ كما أنه لم يهدم قدراً كبيراً من الأرض بما يتيح للمسيحيين الصعود إلى البلدة تحت غطائه؛ قرر حفر نفق على الجانب الأيمن من أسلحة المدفعية المتمركزة فى المنطقة العليا، لكى يدخل الجنود من أسفلها، ويبلغوا جزءًا من سور القلعة، حيث اعتقد السيد خوان أن الحطام الناجم عن نسف تلك المسافة بأكملها، سوف يشكل درعًا كافيًا يتيح للمشاة الصعود إلى الأعلى، والإطلال على الأعداء فى البلدة.

أُوكِلَت تلك المهمة إلى السيد فرانثيسكو دى مولينا، الذى تولى حفر الخندق فى همة عالية. فى أعقاب الانتهاء من إعداد الأتون، وإيدا ع كميات من براميل الذخيرة بالداخل؛ بالإضافة إلى بعض أكياس ممتلئة بالقمح والملح، حتى تزيد من تأجج لهيب النيران؛ صدرت الأوامر إلى فرق المشاة فى العشرين من شهر يناير، لكى ينزلوا إلى الخنادق، ويظهروا رغبتهم فى المبادرة إلى الصعود إلى البلدة عبر فتحات صغيرة كانت المدفعية قد أحدثتها، وأيضًا عن طريق المنازل الكائنة خلف القلعة -والتى تقع أعلى النفق-؛ وذلك من أجل جذب الأعداء إلى تلك المنطقة، والتمكن من نسفهم. تحسبًا لوجوب إغاثة المشاة بالمزيد من القوات، تابع السيد خوان باهتمام ما يدور على جبهة الأعداء،

ومعه كتيبة قوامها أربعة آلاف من جنود المشاة. كان المسلمون غافلون تماماً عن تمكن جنودنا من إقامة نفق فى تلك الناحية، التى كان بها جبال ذات ارتفاع شاهق، حتى بدا وكأنه من المستحيل أن تقوى النيران على إزالتها. وحينما أبصروا دخول الرايات إلى الخنادق، واصطفاف باقى الجنود، أدركوا أن المسيحيين يرغبون دون شك فى شن هجوم عليهم عبر الثقوب التى أحدثتها المدفعية، فهبوا للدفاع عن البلدة، وتمركز ما يربوعلى سبعمائة من الرماة والجنود حملة البنادق فى المنازل التى تعلو النفق، وشرعوا فى إطلاق نيران بنادقهم على بعض الجنود الذين كانوا يسيرون بدون حماية.

عندما حان الوقت المناسب، أُطلِقَت الإشارة لكى يتم إشعال النار فى النفق، مما أحدث انفجاراً هائلاً، حتى أنه أدى إلى نسف الجبل والمنازل وقتل ما يربو على ستمائة من المسلمين. كما نجم عن الانفجار حطام ضخم للغاية من الأتربة والأحجار والأخشاب التى تم نسفها، حتى بدا وكأن الحاجز قد شكّل مدخلاً كبيراً ومتسعاً لإتاحة دخول أى عدد من الرجال إلى البلدة. فيما بعد تم إرسال الجنود المستكشفين، ليروا إذا ما كان يتعين إزاحة أى دفاعات قبل أن تقوم القوات بشن الهجوم؛ وهو ما كان سيمسى قراراً صائباً لولا رغبة الجنود المتحمسين الموجودين فى الخنادق أن يكونوا هم أنفسهم من يتولى تلك المهمة. وقد سادت فرحة غامرة لدى رؤية نفر من المسلمين يخرجون من بين الغبار، كما يجرى عند انهيار أحد المنازل القديمة؛ بيد أنه سرعان ما تعكر الصفو، لأن الجنود تجاهلوا الأوامر وبادروا بملاحقتهم، حيث شرعوا فى ارتقاء أنقاض النفق بدون نظام حتى بلغوا أسوار القلعة.

فى تلك الآونة أمر السيد خوان دى أوستريا بإعطاء إشارة بدء الهجوم، فبادر حملة الرايات إلى الانقضاض شاهرين الألوية فى أيديهم، واندلع قتال يقل فى الاحتدام عنه فى الخطورة. اجتهد رجالنا للدخول عبر فتحة صغيرة كان قصف المدفعية قد أحدثها فى سور القلعة، بسبب عدم عثورهم على مدخل فى أى ناحية أخرى؛ حيث أن النفق لم يكن قد امتد إلى الأمام بالقدر الضرورى، فلم يسفر الانفجار سوى عن نسف الصخور والمنازل الكائنة فى المنطقة الخارجية، فأضحى الأعداء أشد تحصيناً.

وكان المسلمون قد احتاطوا للأمر بدرجة بات لزاماً معها شن معركة من أجل الاستيلاء على كل منزل من المنازل نظراً لتلاصقها وتأمينها. عندئذ هب الأعداء للدفاع عن الثغرة، وألجأوا حملة الرايات والجنود إلى النزول إلى أسفل الحائط لدرء هجومهم. كانت الخسائر التى ألحقها بهم المسلمون عبر الحواجز الوقائية فادحة، وكذلك الأحجار الثقيلة التى ألقوها عليهم من أحد المتاريس المرتفعة التى وقف عندها مسلمو شمال إفريقيا، وكان من بينهم بعض المسلمات اللواتى قاتلن كالرجال، بعد أن زودهن النساء الأخريات والغلمان بقدر كاف من الحجارة، فكانوا يجلبونها لهن ويمررونها إلى أيديهن.

فى أعقاب توقف رجالنا على أثر الأضرار التى منيوا بها -على النحو الذى أسلفناه- بادر حاملو الرايات البواسل إلى التقدم، وتسلقوا أساسات السور واحداً تلو الآخر، لأنه لم يكن بمقدورهم القيام بأمر آخر، لكى يدلفوا عبر الثغرة. كان فى مقدمتهم السيد بدرو ثاباتا، الذى وضع رايته أعلى حائط الأعداء فى استبسال شديد، حتى أنه كان من الممكن أن نظفر بالبلدة فى تلك الليلة لو كان وضع الثغرة يسمح بأن يتبعه واحد أو اثنان من الآخرين. لكن لم يكن بمقدورهم إغاثته، فانقض عليه المسلمون، وأحدثوا به العديد من الجراح، وأسقطوه إلى الأسفل، وقد ظل دوماً ممسكاً بالراية بين ذراعيه، حتى أنه لم يتسن للمسلمين انتزاعها منه، على الرغم من أنهم جذبوها بشدة. ليقوموا بعد ذلك بسد الثغرة فى عجالة باستخدام الأخشاب والأتربة والأقمشة، ويحصّنوها على نحو لم يخول لنا بلوغها فيما بعد.

فى تلك الآونة كان السيد خوان دى أوستريا يرقب كل ما يدور، وقد تراءى له أنه من الممكن الدخول إلى البلدة عبر أسطح المنازل الكائنة بالمنطقة الشرقية. فأمر القادة التالين: السيد بدرو دى سوتومايور Pedro de Sotomayor، والسيد أنطونيو دى غورماث Antonio de Gormaz، وبيرناردينو دى كيسادا، أن يتوجهوا مع حملة البنادق التابعين لكتائبهم ويحاولوا الاضطلاع بذلك الأمر، والسعى لإسقاط المسلمين والمسلمات -الذين يلحقون الضرر بالمسيحيين بقذف الحجارة- من استحكامات القلعة. وقد قام هؤلاء -على الرغم من معرفتهم بمدى الخطر الذى يجابهونه- بتقديم الشكر له على

إنعامه عليهم ومنحهم تلك الميتة الكريمة، ثم تقدموا إلى الأمام، ولدى بلوغهم أسلحة المدفعية حاولوا القيام بما أمروا به، وحاولوا اقتحام البلدة من أنحاء متفرقة. بيد أن جهدهم كان دون جدوى، لأن الأعداء الذين كانوا بانتظارهم مختبئين وراء متاريسهم، أحدثوا بهم جروحًا بالغة بالبنادق والأقواس الفولاذية من خلف التحصينات الدفاعية، حيث قتلوا ما يربو على مائة وخمسين جنديًا، وأصابوا القادة أيضًا.

وهكذا أضحى رجالنا مع تلك العوائق مكشوفين لهجوم لأعداء، دون القدرة على إحداث تأثير آخر. وبعد أن دام الهجوم على مدار أكثر من ساعتين، قام السيد خوان دى أوستريا -لَمّا رأى مدى المقاومة التى أظهرها الأعداء، وأنه ينبغى قصفهم بالمزيد من أسلحة المدفعية- بإصدار أوامره بالانسحاب، وقد انسحب الرجال فى وقت كان هو الأفضل لجنود وحدات الجيش الإسبانى التى يرأسها السيد بدرو دى باديّا، والتى كانت قد تعرضت للهجوم بغية اقتحام جبهتها. مات فى ذلك اليوم العديد من المسلمين، لكن الخسائر التى لحقت بالمسيحيين كانت أكبر، حيث قُتِلَ أربعمائة جندى، وجُرِحَ ما يزيد على خمسمائة فرد، كان من بينهم الكثير من الرجال البارزين، كانوا يتصفون بالإقدام كشأن النبلاء الذين يسعون لنيل الشرف، فأعملوا القتل والجرح فى الأعداء - بوصفهم رجالاً أفشلوا مقصدهم- قبل أن تتاح لهم الفرصة لإظهار بسالتهم.

قُتِلَ القادة: مارتين دى لوريتى، وخوان دى ماكيدا Juan de Maqueda، وبالتاسار دى أراندا، وألونسو بيلتران دى لا بينيا، والأخوان كارلوس دى أنتيّون، وفادريكى دى أنتيّون Fadrique de Antillón، وبدرو ميريث Pedro Mirez -حامل لواء السيد أنطونيو دى غورماث-، وآخرون. كما جُرِحَ كل من: السيد خوان دى كاستيّا Juan de Castilla جراء عيار نارى أصاب ذراعه، والسيد أنطونيو دى غورماث -أحد أهالى جيّان- على أثر الأحجار الكثيرة التى ألقيت عليه، والقائد أباركا Abarca الذى أصيب بطلق نارى فى الوجه؛ وقد ماتوا فى غضون أيام قلائل متأثرين بجراحهم. وكذلك فقد جُرِحَ كل من: السيد بدرو دى باديّا، وحامل لوائه بوكانيغرا Bocanegra، وماركيز فابارا، والسيد لويس إنريكيث Luis Enríquez -ابن أخ القائد الأعلى لقشتالة-، وباغان دى أوريا،

والسيد لويس دى أيالا Luis de Ayala؛ علاوةً على القادة: السيد ألونسو دى لوثون، وخوان دى غالارثا Juan de Galarza، ولاثارو دى إيريديا، والسيد أنطونيو دى بيرالتا Antonio de Peralta، وحامل رايته وقائد جنوده السيد بدرو دى سوتومايور، والسيد دييغو ديلغاديّو Diego Delgadillo –حامل لوائه–، وبيرناردينو دى كيسادا، ودييغو باثكيث دى أكونيا، وولده السيد لويس دى أكونيا Luis de Acuña، وبيرناردينو دوارتي Bernardino Duarte، وبيرناردينو دى بيّالتا، وشقيقه ميلتشور دى بيّالتا Melchor de Villalta، وفرانثيسكو دى سالانتى، وحامل رايته بورتييو Portillo، وألونسو دى ألبارادو Alonso de Alvarado –حامل راية السيد ألونسو دى بارغاس Alonso de Vargas–، وبيلاسكو Velasco –يتناول الكيفية التى تم بها شن هجوم آخر على بلدة غاليرا، ووفاة العديد من الرجال البارزين. حامل راية السيد خوان دى أبيلا ثيمبرون Juan de Ávila Zimbrón–، والكثيرون غيرهم ممن لن نفرد لهم ذكرًا فى هذا الموضع لتفادى الإسهاب.

الفصل الخامس

كيف أمر السيد خوان دى أوستريا بحفر نفقين آخرين فى غاليرا، وكيف فتحها بقوة السلاح.

لم يتوقف الألم الذى استشعره السيد خوان دى أوستريا عند حد الأنين والعبرات، لكنه أمر أولاً في غمار غضبه العارم -المشوب بتقواه العادلة والمقدسة- بدفن القتلى وحمل الجرحى لمعالجتهم. ثم أصدر أوامره بحشد أعضاء المجلس، وقال لهم العبارات التالية: " لقد أرشدتنا الأحزان التى كابدناها اليوم إلى العلاج الأكيد. أنا سأقضى على غاليرا، وسأسويها بالأرض، وأبذرها كلها بالملح. وسأعمل حد السيف الماضى على كل من بداخلها -صغاراً وكباراً- عقاباً لهم على وقاحتهم، وثأراً للدماء التى أراقوها. بادروا بإخطار المهندسين وقائد سلاح المدفعية ألا يهدأ حتى يكون قد حفر نفقين آخرين، على أن يمضيا لمسافة بعيدة أسفل القلعة، حتى ينسفا الحصن الذى لحقت بنا الخسائر عنده، على نحو يفتح السبيل أمام مشاتنا للدخول من تلك الناحية، وما من شك أنه لن يحول بينهم وبين ذلك أى مقاومة. وإذا ما تعجلنا الأمر على النحو الذى ينبغى، فإنى آمل من الرب أن يتزامن نبأ الانتصار مع نفس توقيت نبأ الحادث الأليم، ويصلا معاً إلى مسامع مولاى جلالة الملك".

وما أن تلفظ الشاب الجرىء بتلك الكلمات حتى قوبل رأيه باستحسان الجميع وإطرائهم الشديد. كما أنه ألهب حماسة الجيش وهمته إلى حد بعيد، حتى أن القادة والجنود ازدروا المخاطر، ولم يعودوا يتمنون سوى الرجوع إلى الاقتتال بالأسلحة مع الأعداء، من أجل أن ينتقموا بأيديهم لبنى جلدتهم على الوجه الأكمل. بينما كان رجالنا

يعملون فى الأنفاق، لم يتوان المسلمون المحاصرون عن الاعتناء بأعمال الإصلاح وكل ما ظنوا أن الحاجة تقتضيه من أجل الذود عن أنفسهم، لكنهم كانوا يعانون عجزًا فى الذخيرة -وهو ما شكل أمرًا أساسيًا- لأنهم استنفذوها فى أثناء الغارات التى كانوا قد شنوها؛ كما أنهم فقدوا الجزء الأغلب من المحاربين. لكن رغمًا عن ذلك فقد كانوا يحسبون أن بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم، لثقتهم فى الوعد الزائف الذى كان المالح قد أعطاهم إياه حول مجىء المسلمين لنجدتهم بكل ما أوتوا من قوة.

خرج مائتان من المسلمين فى إحدى الليالى للحيلولة دون العمل فى أحد النفقين. وقد تصادف وجود القائد فرتثيسكو دى مولينا، برفقة حامل الراية رينكون Rincón وسرية مكونة من عشرين جنديًا، وقد تعين على الجميع الاشتباك بالأيدى، لأن المسلمين وصلوا إلى فتحة النفق فى عزيمة ماضية، وجرحوا بعض رجالنا. لكن عندما تم إطلاق النفير، تراجعوا بعد أن منيوا بخسائر، ولم يجسروا على الخروج بعد ذلك؛ كما أنهم لم يحفروا لغمًا مضادًا، لأنهم اعتقدوا أنه من المستحيل أن يقدر البارود على نسف جبل بالغ الضخامة وشاهق الارتفاع، كذلك الذى شيدت عليه القلعة، وحسبوا أن النفق الملغم سينفجر عند المناطق الأكثر ضعفًا قبل أن يبلغها. كان هذا هو ما أخبرنا به لاحقًا بعض المسلمين، بيد أن الأمر المحقق هو أنهم لم يجسروا على حفر اللغم المضاد، لأنه كان يستلزم الحفر على عمق يزيد على مائتين وثمانين قدم، من أجل بلوغ النفق وإعاقته. وعلى أية حال فإنهم لم يولوا هذا الشأن عنايتهم، نظرًا لبذلهم جهودًا مضنية فى الدفاعات الأخرى.

عندما باتت الأنقاض جاهزة ويمكن تفجيرها، أمر السيد خوان دى أوستريا سلاح المدفعية أن يقصف سائر الدفاعات من الجهات الأربعة. تولى السيد لويس دى أيالا قصف المنطقة الجنوبية، والمنازل، وما يمكن كشفه من أسوار القلعة بأربعة مدافع. بينما قام القائدان بيرناردينو دى بيّالتا وألونسو دى بينابيديس باستخدام أربعة مدافع لاستهداف القلعة، وكذا المنازل التى يتم اكتشافها من ربوة بارزة بعض الشىء تقع فى المنطقة الغربية. أما السيد دييغو دى ليبا، فقد قام بضرب المنازل والتحصينات

المنخفضة من ثكنة السيد بدرو دى باديًا الكائنة باتجاه الشمال، وذلك بواسطة مدفعين. كما استخدم السيد فرانثيسكو دى مولينا عشرة من قطع المدفعية من أجل القصف ناحية القلعة، وبعض الأسوار الضخمة القديمة التابعة لبرج القسم -الذى كان الأعداء قد أودعوا به رأس القائد ليون دى روبليس، وهو أحد أهالى بسطة الذين قتلوا هناك فى أثناء وجود ماركيز بلش- وسائر منازل البلدة التى تقع على سفح الجبل من الجهة الشرقية.

فى تلك الأيام كان أحد الفتية الموريسكيين قد فر هاربًا من غاليرا. وقد أطلع السيد خوان دى أوستريا بشكل دقيق للغاية على الحالة التى وصلت إليها شئون المسلمين، وأحاطه الفتى علمًا بما أقاموه من تحصينات، وأكدّ للسيد خوان أن اللغم السابق قد أودى بحياة ما يربو على سبعمائة مسلم من الرماة والقوّاسين. عندها أدرك السيد خوان أن المسلمين سيتحصنون فى المنطقة التى يمكن للغمين الجديدين نسفها، فأصدر أوامره فى العاشر من فبراير إلى كل جنود المشاة لكى ينزلوا إلى الخنادق، وإلى سلاح الفرسان لكى يحاصروا البلدة -تحسبًا لمبادرة الأعداء بالخروج منها. حينما بات الجميع متأهبين وشاهرين الأسلحة فى أيديهم، قام المسؤولون عن الأنفاق بإشعال النار فى اللغم الأول -الذى كان بجوار النفق القديم-، فأحدث انفجارًا ضخمًا تم على أثره نسف الجبل والمنازل وكل ما كان يعلوه. بيد أنه لم يصل إلى القلعة ولم يلحق أضرارًا بالمسلمين، الذين تعلّموا درسًا لا ينسى من الواقعة الفائتة، وكانوا قد تراجعوا إلى المنطقة الداخلية -فى إحدى الساحات الصغيرة الموجودة بالجوار- بعد أن خلفوا وراءهم ثلاثة رجال ليتولوا مهام المراقبة من الأعلى بينما هم نائمون على بطونهم -لأنه لم يكن ليسعهم التواجد على أى نحو آخر-؛ وكانت الأوامر قد صدرت إليهم لكى يقوموا بتحذير من بالداخل بمجرد رؤيتهم لصعود رجالنا، حتى يتاح لهم وقت للتحصن.

فى أعقاب انفجار اللغم الأول لم تكف المدفعية عن إطلاق أسلحتها. وبعد برهة من الزمن انفجر اللغم الآخر -الذى كان باتجاه الغرب-، وقد أحدث دمارًا هائلاً، حتى أن

الأعداء الخائفين من ذلك الزلزال الرهيب، الذى ارتجفت له الأرض وأحدث هزة فى الرابية بأكملها، لم يصعدوا لتفقد القلعة، ربما لاعتقادهم أنه ما زال هناك المزيد من الألغام على وشك الانفجار؛ كما أن جنود المراقبة لم يجرؤوا على المكوث بالأعلى، لأن طلقات الأعيرة النارية كانت تنهال عليهم من شتى الأرجاء، حتى أنه لم يعد هناك مأوى يمكنهم اللجوء إليه. عندئذ أرسل السيد خوان دى أوستريا ثلاثة رجال لكى يستطلعوا إذا ما كان اللغمان قد فتحا مدخلاً كافياً لشن الهجوم، وإذا كانت لا تزال هناك عوائق تحول دون تنفيذه. وصل أحد هؤلاء الرجال إلى سور القلعة ذاته، حيث كان الأعداء قد وضعوا فى الجزء الغربى منه راية كبيرة ملونة، فانتزعها، وهبط حاملاً إياها فى يده وصولاً إلى الخندق، دون أن يعترض طريقه أحد. إزاء مشاهدة الجنود للقائد لاسارتى Lasarte –وكان هذا هو اسم من جلب الراية إلى الخندق– يصعد إلى الأعلى ويستولى عليها دون مقاومة، تراءى لهم أنه ما من داع لإضاعة الوقت، وغادروا الخندق من دون انتظار إشارة أخرى. وقد أخذوا يرتقون الربوة ما بين المدافع، حتى أنهم احتلوا أعلى القلعة قبل أن يكون الأعداء قد تهيأوا للدفاع عنها. ولمّا كانوا يطلون عليهم من عل، فقد شرعوا فى الاستيلاء على الشوارع والمنازل منهم، وهم يقفزون ما بين أسطح المنازل عبر الممرات ذاتها التى سلكها المسلمون للتراجع.

كان الهجوم الذى شنه السيد بدرو دى باديا مع وحدات الجيش الإسبانى التابعة له فى الوقت ذاته على المنطقة السفلية قد ساعد كثيراً على إلهاء المسلمين والتثبيط من عزيمتهم. حيث مر القائد بطول البلدة عبر السفح الغربى، ثم اقتحمها بحماس من خلال الثغرات التى كان قصف المدفعية قد أحدثها فى حوائط المنازل. وهكذا فإن المسلمين المحاصرين، والمهاجمين من العديد من الجبهات، والذين أفقدتهم سحابة الخوف رشدهم، وقعوا فريسة لأسلحة رجالنا فى أثناء فرارهم منها؛ وفى غمار خشيتهم من أن تنال منهم، كانوا هم من ألقوا بأنفسهم فى التهلكة. كانت هناك ساحة صغيرة بجوار البوابة الرئيسية، حيث شرع المسلمون فى التجمع، فصارت هى المحل الذى شهد مصرع الجزء الغالب منهم.

كانت قطع المدفعية العشرة التى قصف بها فرانثيسكو دى مولينا البلدة ذات تأثير بالغ، حيث اقتحمت جموع الرجال البلدة من تلك الجبهة. ولمّا كانت الأسلحة تكشف الأسطح، فإنها لم تسمح لمسلم بالوقوف عليها؛ كما أن الجنود استخدموا السلالم ذاتها، التى كان الأعداء قد جهزوها للتنقل بين الأسطح، لارتقاء المنازل واستخلاصها من قبضة الأعداء. وقد قام الجنود بخرق أسقف المنازل بالأخشاب الضخمة، وبادروا بإطلاق نيران البنادق عليهم وحملوهم على هجرها. وقد باتوا يبسطون سيطرتهم على البلدة شبراً شبراً، حتى أحدقوا بما يربو على ألفى مسلم وحاصروهم فى تلك الساحة الصغيرة التى أشرنا إليها آنفًا. احتشد بعض منهم فى أحد المنازل رغبةً فى التراجع عن موقفهم، لكنهم ماتوا جميعًا، لأنه على الرغم من استسلامهم فإن السيد خوان دى أوستريا لم يرغب فى الإبقاء على حياة أحد. وقد امتلأت كافة الشوارع والمنازل والميادين عن آخرها بجثث المسلمين القتلى، حتى أنه فى ذلك اليوم لقى ما يزيد عن ألفين وأربعمائة محارب مصرعهم بحد السيف.

بينما كانت المعركة دائرة داخل البلدة، كان السيد خوان دى أوستريا يحيط بها من الخارج برفقة سلاح الفرسان. حينما خرج بعض الجنود -بعدما خلفوا رفاقهم يقاتلون فى الميدان- للاستئثار بالمسلمات اللواتى تم أسرهن، أصدر السيد خوان أوامره إلى حملة الدروع لكى يجهزوا عليهن، فقتلوا ما يزيد على أربعمائة امرأة وطفل. وما كانوا ليتوقفوا حتى القضاء عليهم تماماً، لو لم تحرك السيد خوان شكاوى الجنود الذين كان يتم حرمانهم من مكافأة النصر؛ لكن ذلك حدث حينما أدرك القائد أن البلدة قد صارت فى قبضتنا بالفعل. كما أنه لم يرغب فى الصفح عن أى غلام يتجاوز عمره اثنى عشر عاماً، حيث ظل غضبه يتنامى بشدة عندما أخذ يفكر فى الضرر الذى أحدثه أولئك المارقون، دون أن يودوا قط أن يتذللوا ويطلبوا الاستسلام. وهكذا أمر جنود الحراسة خاصته، المزودين بالرماح ذات رأس البلطة، بقتل الكثيرين منهم فى حضوره. كان من تبقى على قيد الحياة من النساء والأطفال أربعة آلاف وخمسمائة، وكانوا ينتمون إلى غاليرا، وكذلك بلدتى أورثى وكاستييخا، بالإضافة إلى بقاع أخرى. وقد تم العثور على كميات ضخمة من القمح والشعير تكفى لعام كامل، كما غنم القادة والجنود فيئًا ثمينًا من الحرير والذهب واللؤلؤ وأشياء أخرى قيمة خصصوها لأنفسهم.

فى أعقاب ذلك بعث السيد خوان دى أوستريا بكتاب يحمل الخبر الثانى الذى يحمل نبأ الانتصار، ولم تكن السعادة التى تم استقباله بها فى البلاط تقل عن الوقع السيئ الذى أحدثه الخبر الأول حينما بلغ مسامعهم. بلغت الأنباء جلالة الملك فى أثناء وجوده عند عذراء غوادالوبى Nuestra Señora de Guadalupe، وذلك فى طريقه إلى مدينة قرطبة، حيث كان قد أمر باستدعاء مجالس النواب لرغبة جلالته فى مشاهدة قرى أندلوثيا؛ وهو ما لم يكن قد تسنى لجلالته القيام به منذ أن عهد إليه والده الإمبراطور المسيحى الورع بمقاليد الملك، نظرًا لكثرة وجسامة المشاغل التى كان يتولاها. بيد أنه لم يتم إقامة احتفالات أو غيرها من مظاهر التعبير عن الفرح، حيث تم الاكتفاء بتقديم الشكر إلى الرب والقديسة مريم العذراء، الذين أعزى إليهما جلالة الملك ذلك الانتصار، لأن جلالته كان ممن يهدفون إلى تحقيق المجد عبر إرساء السلام والوفاق أكثر من نيله عن طريق الحروب الدامية. وقد أمرنى السيد خوان دى أوستريا بأن أتولى تجميع القمح والشعير الذى كان فى حوزة المسلمين هناك، وأن يتم تسوية البلدة بالأرض، وبذرها بالملح. ثم انطلق مع الجيش بأكمله نحو نهر المنصورة.

الفصل السادس

يتناول ذهاب السيد خوان دى أوستريا إلى بسطة، وإرساله من يقوم بتفقد سيرون.

فى أعقاب إصدار السيد خوان دى أوستريا الأوامر بتسوية سائر منازل غاليرا بالأرض ويذرها بالملح، انطلق من ذلك الموضع مع جميع المحاربين قاصداً كويّار. لكن عندما شرعت الطليعة فى التقدم، أدرك أن عربات نقل أسلحة المدفعية والأمتعة لن يمكنها أن تسلك ذلك الطريق. ففى الليلة الفائتة كانت السماء قد أمطرت بغزارة وسقطت ثلوج كثيفة، مما حوّل الأرض إلى مستنقعات وبرك موحلة، وكانت هناك مساحات شاسعة مكسوة بالوحل، لذا بات لزامًا حمل الخيام وكل المركبات التابعة للجيش إلى غويسكار. وقد عهد السيد خوان إلىّ بتلك المهمة[٥]، واستكمل مسيرته برفقة المشاة والفرسان فحسب، أمرًا إياى أن أبعث بالقمح والشعير بالقدر الذى يكفى لتلك الليلة فقط. على أن أقوم فى صباح اليوم التالى بتجميع العربات والأمتعة، وتحميلها بجميع المؤن والأسلحة والذخائر التى كانت موجودة هناك، وأن أنقلها إلى مدينة بسطة حيث سيوجد هو.

قضى السيد خوان تلك الليلة فى كويّار، وقد بعثت إليه هناك بكمية من القمح والشعير. عندما بلغت المركبات المدينة فى اليوم التالى، اجتمع الجيش باكمله، وتم إصدار الأوامر بالتوجه إلى نهر المنصورة. كان أول ما حدث هو توجيه السيد خوان

(٥) فى هذا الجزء الأخير يتحدث مارمول كثيرًا عن دوره فى الحرب. (المراجع)

الأمر إلى كل من: السيد غارثيا مانريكى، والسيد أنطونيو إنريكيث، والسيد تيّو غونثاليث دى أغيلار، لكى يتوجهوا إلى سيرون -وكانت أول النقاط التى يتعين محاربتها- على أن يصحبوا مائة وستين رمّاحًا وخمسين من حملة البنادق من كتيبة الفرسان التابعة للسيد ألونسو بورتوكارّيرو، علاوةً على السيدين خوردان دى بالديس Jordan de Valdés وغارثيا دى أرثى García de Arce. وقد كلفوا باستطلاع تضاريس الأرض، وموقع تلك البلدة، والمكان الذى يمكن للجيش أن يعسكر به على نحو جيد. فرغمًا عن أنه قد تم من قبل إرسال من يستكشف المكان من غاليرا، فإن من تولى تلك المهمة لم يتمكن من تنفيذها، لأن أعدادًا كبيرة من المسلمين كانت قد هبت للحيلولة دون ذلك.

وصل أولئك القادة من بسطة إلى كانييس مع حلول الليل. وقد سلكوا طريق العودة إلى سيرون فى الساعة التاسعة مساءً، بعد تقديم الشعير إلى الخيول. بيد أن الظلام كان حالكًا، حتى أن الدليل الذى كان يرافقهم ضل الطريق. حينما أدرك الرجل أنه يتيه فى الأرض، عالج ذلك الأمر بالإفلات من الرجال والفرار عبر التلال. حدث آنذاك أن ابتعد السيد غارثيا دى مانريكى عن الركب لكى يشرب من إحدى برك المياه الكائنة إلى جوار الطريق، ولم يصطحب سوى اثنين من الفرسان. عندما لم يستطع الفارسان الرجوع إلى القائد لاحقًا، اتفقا على رفع أصواتهما لكى يجيبهما الباقون ويتسنى لهما تقدير مكانهما؛ وقد كان هذا هو السبب الذى أدى إلى أن يستشعر المسلمون وجودهم، وفقًا لما عُرِفَ فيما بعد حينما ألفى السيد غارثيا نفسه من دون دليل ومحاطًا بالظلمة الحالكة، قرر أن يوقف مسيرته حتى بزوغ الفجر، وذلك عند أحد التلال الكائنة على الطريق قبل الوصول إلى العين الدافئة؛ حينما طلع ضوء النهار، استأنف سيره بعد أن أرسل الكشافين فى المقدمة. لمّا لم يظهر أى من المسلمين طوال الطريق بأكمله، أدرك الجمع أنهم قد غادروا سيرون. بالغ الكشافون فى التقدم حتى وصلوا على مقربة من البلدة، وكانوا دائمًا ما يسلكون الطريق الذى ينحدر إلى النهر.

كان الأعداء قد أقاموا سياجًا من الخوازيق عند مدخل البلدة الذى يتم الصعود من خلاله إلى نهر سيرون، وأعدّوا فخًا فى ذلك الموضع؛ حيث تركوا اثنتى عشرة بقرة وستة أمتعة عند النهر، لكى ينشغل المسيحيون بالاستيلاء عليها فيهجمون عليهم. لكن تم اكتشاف وجودهم فيما بعد، لأنه لدى بلوغ الكشافين الماشية خرج المسلمون من مكمنهم، وحملوهم على التراجع أعلى طريق النهر وصولاً إلى باقى الرجال. كان أولئك الجنود هم اثنا عشر من حملة الدروع التابعين لكتيبة تيّو دى أغيلار، وقد نقلوا إلى السيد غارثيا مانريكى كيف أنه يوجد وراء ذلك الحاجز من الخوازيق عدد كبير من الأعداء. لم يرغب القائد فى المضى قدمًا أو الرجوع من المنطقة التى دخل منها، ظنًا منه أنه لابد وأن تكون هناك كمائن أخرى بخلاف ما تم اكتشافه؛ فسلك الجنود إحدى السبل التى كان السيد أنطونيو إنريكيث على دراية بها، وعادوا باتجاه كانييس عبر سفح الجبل، بعد أن شغل مؤخرة الركب كل من حملة البنادق من الفرسان التابعين للسيد ألونسو بورتوكاريّرو وحملة الدروع التابعين لإيثيخا.

لدى مشاهدة المسلمين تراجع رجالنا، وثبوا إلى الخارج وهم يطلقون صيحات حرب مدوية، ليتركوا تلك الأودية ويشرعوا فى ملاحقة رجالنا حتى تركوا الجبل. وعلى الرغم من أنه كان لديهم ثمانون فارسًا، فإنهم لم يجسروا على الانفصال عن حملة البنادق، خشية أن يدور فرساننا على أعقابهم ويغيروا عليهم؛ وقد أراد الفرسان القيام بذلك الأمر أكثر من مرة، بيد أن القادة لم يوافقوا على ذلك. كان ذلك التراجع عبر سبيل مخالف لذلك الذى كان جنودنا قد دخلوا منه يحمل قدرًا كبيرًا من الأهمية؛ فلو سلك الرجال الطريق الواضح، كان سيبيت لزامًا عليهم اللجوء إلى الاشتباك بالأيدى، لأن ما يربو على ألفى مسلم كانوا قد قطعوا عليهم ذلك المعبر؛ وهو ما فطننا منه إلى أنهم أحسوا بالجنود فى تلك الليلة التى ابتعد فيها السيد غارثيا مانريكى عن الركب.

كان أحد حملة الدروع التابعين لكتيبة تيّو دى أغيلار يدعى ليبا Leiva قد توجه فى ذلك اليوم لاستدعاء بعض رفاقه، الذين كانوا يتولون مهمة المراقبة من أعلى إحدى الروابى. أبصر الرجل على أحد السفوح عشرة أو اثنى عشر فارسًا يرتدون ثيابًا ملونة،

فاعتقد أنهم حملة دروع ينتمون لكتيبته، لأنهم كانوا جميعًا يحملون ذلك الشعار؛ فذهب إليهم وقال لهم: "تراجعوا أيها الرفاق، هناك كمين منصوب لنا!". قام الرجال بإحاطته، وجعلوه في المنتصف؛ ثم ألقوا القبض عليه، وحملوه إلى سيرون، لأنهم كانوا من الأتراك ومسلمي شمال إفريقيا، وما كانوا يرغبون في قتله. كان السيد غارثيا مانريكي قد تراجع دون الاضطلاع بمهمة استكشاف البلدة، وقد رجع إلى موضع كانييس مع غروب الشمس، ليجد السيد خوان دي أوستريا هناك منتظرًا إياه مع باقي الجيش من أجل التوجه لمحاصرة سيرون. فلمّا علم أنه تخلى عن أداء تلك المأمورية نظرًا لقلة من كان معه من الرجال، صدر قرار في المجلس بأن يتوجه عدد أكبر من الفرسان والمشاة لتولي ذلك الأمر.

الفصل السابع

يتناول ذهاب السيد خوان دى أوستريا لتفقد سيرون، وانتصار المسلمين عليه، ووفاة لويس كيخادا.

فى ذات الليلة التى عاد فيها السيد غارثيا مانريكى إلى كانييس، تم اتخاذ قرار بتوجه ألفين من حملة البنادق المنتقين ومائتى فارس لتفقد سيرون؛ لأن إدراك التدابير التى قام بها المسلمون بات أمرًا ضروريًا للغاية من أجل محاصرة المدينة على نحو يحول دون وصول الإمدادات إليها، ويتيح للجبهات أن تتمكن من إغاثة بعضها البعض حينما تقتضى الضرورة. كان كل من حلّوا بتلك البلدة قد أقروا بالصعوبة البالغة لذلك الأمر، قائلين إنها أراضى شديدة الوعورة، وإنه لا يمكن محاصرتها بسهولة نظرًا لعدم توفر المياه فى بعض الأنحاء. أراد السيد خوان دى أوستريا مرافقة أولئك الرجال بذاته، فانطلق من بلدة كانييس فى الساعة التاسعة من مساء تلك الليلة بصحبة كل من: القائد العام لقوات قشتالة، ولويس كيخادا، وفرسان ونبلاء آخرون من عائلته.

رافقت السيد خوان دى أوستريا ثلاثة من كتائب الفرسان: إحداها تتبع دوق ميدينا سيدونيا Medina-Sedonia وكان يترأسها فرانثيسكو دى مندوثا -أحد أهالى جبل طارق-؛ والثانية تابعة لمدينة شريش الفرنتيرة، وكان يقودها السيد لويس دى أبيلا، نظرًا للوعكة التى ألمت بأخيه السيد مارتين دى أبيلا، وكان قائدًا لها؛ والثالثة خاصة بالبقاع التى تدخل فى نطاق كاثورلا، وكان يقودها إيرناندو دى كيسادا. كما صاحب فرق المشاة كل من: القائد الميدانى السيد لوبى دى فيغيروا Lope de Figueroa، والسيد ميغيل دى مونكادا، وخوان دى إسبوتشى Juan de Espuche، وغيرهم من

القادة والنبلاء من ذوى الشأن. سار الركب طوال تلك الليلة دون توقف، وحينما لاح الفجر قامت فرق المشاة بنصب كمين عند بعض الوهاد الموجودة بسفح الجبل ذاته قبيل بلوغ سيرون. تقدم السيد غارثيا مانريكى إلى الأمام، ومعه مائة رمّاح من كتيبة دوق ميدينا سيدونيا، فصدرت إليه الأوامر بأن يسارع بالدخول إلى المنطقة الكائنة أسفل النهر، متظاهراً أمام الأعداء بقدومه من أجل تفقد البلدة؛ وهكذا فى حال نصب المسلمين لأحد الكمائن، فسوف يخرجون إليه. مضى القائد على النحو المتفق عليه إلى أن بلغ سياج الخوازيق -الذى أتينا على ذكره آنفًا-؛ وإزاء عدم خروج أحد لملاقاته، رجع إلى حيث ترك باقى القوات.

حينما رأى السيد خوان دى أوستريا أن المسلمين لم يخرجوا كما حدث فى المرة الفائتة، أصدر أمراً إلى السيد فرانثيسكو دى مندوثا لكى يتوجه إلى أسفل النهر بصحبة المائة رماح الذين كانوا رافقوه من قبل، بالإضافة إلى المزيد من الفرسان، وأن يتمركز فى الجهة الأخرى من سيرون عند الممر الذى يمكن أن يأتى عبره المسلمون من تيخولا وبورتشينا. ثم قسّم السيد خوان قوات المشاة إلى فرقتين، وعهد بإحداهما إلى السيد لويس كيخادا، لكى يسلك السفح الكائن على الجهة اليمنى من النهر، ويصطحب معه خوان دى إسبوتشى؛ بينما أوكل الفرقة الأخرى إلى القائد العام لقوات قشتالة، لكى يذهب لاحتلال الضفة الأخرى من النهر التى تقع على اليسار، على أن يصحبه لوبى دى فيغيروا. كما أمر سلاح الفرسان أن يسلكوا مجرى النهر مع حامل البيرق الذى يتبعه، وقد مكث هو بصحبة جنود الحراسة الخاصة به من حملة الرماح ذات رأس البلطة، ونفر من النبلاء، وسرية تضم مائة من الجنود، أعلى إحدى الروابى التى تكشف تلك المنطقة بأسرها؛ لأن القائد العام لقوات قشتالة ولويس كيخادا لم يوافقا على تقدمه إلى الأمام، إلى أن يتم التأكد من خلو النهر بأكمله من الكمائن، وإمكانية وصوله على مقربة من البلدة دون تعريض نفسه للخطر.

باشرت جميع القوات السير على ذلك النهج، وبدأ المسلمون فى إرسال الإشارات الدخانية، فهبت لنجدتهم أعداد غفيرة من شتى الأرجاء. وهكذا تمركز أهالى سيرون مع من حضروا من سائر البقاع الأخرى على المنحدرات، وشرعوا فى إمطار الفرسان

الذين يسلكون مجرى النهر بنيران بنادقهم. لذا فقد أمر السيد خوان دى أوستريا حامل بيرقه أن يصعد إلى حيث هو، لأن من برفقته كانوا يمنون بخسائر فادحة بين صفوفهم، حيث كانوا هدفًا لرماة المسلمين. تقدم تيَو غونثاليث دى أغيلار إلى الأمام -وكان قد خرج إلى تلك الحملة برفقة أربعة من حملة الجنود التابعين لكتيبته فقط ليكون على مقربة من السيد خوان دى أوستريا- وتوجه مع اللواء وفرسان آخرين وبعض النبلاء لينضم إلى كتيبة لويس كيخادا، التى كانت تسير رويدًا رويدًا بحثًا عن مكان مناسب تستطيع من خلاله الهجوم على المسلمين، الذين كانوا يحتلون قمم تلك الروابى. وعندما بلغ القائد كيخادا موضع أحد أبراج المراقبة القديمة، التى تقع على رابية مواجهة للبلدة، قبل بلوغ الطريق الذى يصعد من النهر، قسّم الرجال إلى فريقين. تولى تيَو غونثاليث دى أغيلار قيادة أحدهما من أجل الصعود مباشرةً إلى البرج، بينما قاد هو الفريق الثانى ليصعد به عبر موقع قريب من الطريق المفضى إلى سيرون.

شرع الجنود فى الصعود فى استبسال والاشتباك مع الأعداء، حتى حملوهم على التراجع صوب البلدة ذاتها؛ كما أنهم لم يجسروا كذلك على المكوث بها، وهجروها ليرتقوا جبلاً مرتفعًا كان يعلو المنازل. فى أعقاب ذلك ركضت الموريسكيات للاحتماء بالقلعة، التى كان بها عدد كبير من المسلمين الذين لم يكفوا عن إرسال الإشارات الدخانية لطلب النجدة. فى تلك الآونة وصلت الفرقة التى يصحبها السيد لوبى دى فيغيروا، حيث اقتحم الجنود المنازل وبدأوا فى الانفصال عن الركب؛ كما سار بعضهم فى الشوارع حتى بلغوا أبواب القلعة، وقاموا بأسر الكثير من الموريسكيات اللواتى كن يتهيأن للدخول إليها؛ وكذلك فإن العديد من الجنود الجشعين -الذين يعبأون بالربح أكثر من كرامة الأمة- اختبأوا فى المنازل من أجل حماية الغنائم التى ظفروا بها.

فى أثناء حدوث ذلك شرع القائد العام ولويس كيخادا فى استكشاف البلدة، وخلال تفقد القائدين لتضاريس تلك الأراضى، خرج على رجالنا ما يزيد على ستة آلاف مسلم، كانوا قد هبوا من تيخولا وبورتشينا ومواضع أخرى على نهر المنصورة لتلبية الإشارات الدخانية، وقد رافقهم إيرنانو الحبقى والمالح وآخرون من القادة المسلمين.

وصل أولئك إلى الموضع الذى كان به فرانثيسكو دى منوثا فى الوقت الذى كان الجزء الغالب من حملة الدروع قد ذهبوا لنهب منازل البلدة، وحينما ألفى القائد نفسه غير قادر على التصدى لتلك الجموع الغفيرة من الأعداء، بدأ فى التراجع إلى أعلى النهر وهو يطلق النفير. بعث القائد العام ولويس كيخادا بالسيد ميغيل دى مونكادا مع حشد من الفرسان والمشاة لنجدته وتعزيز الحراسة على ذلك المعبر؛ لكن الوقت كان قد تأخر إبان مجيئه، لأنه التقى الفرسان الذين كانوا يتراجعون فى عجالة؛ فما كان من هؤلاء وأولئك إلا أن تراجعوا وتركوا المعبر خالياً أمام الأعداء.

هنالك بادر القائد العام بالحضور بذاته إلى المكان، حيث أسرع بتشكيل جبهة من الجنود والفرسان الذين تسنى له جمعهم فى عجالة شديدة، وقد تعاون معهم الجنود الذين كانوا قد انفصلوا عن الركب. من جهة أخرى، فإن المسلمين الذين وجدوا المعبر خالياً صعدوا إلى سيرون، حيث انضم إليهم من كانوا قد خرجوا هاربين من البلدة، ليدلفوا إليها من المنطقة العليا، فألفوا رجالنا على غير هدى، وقد شُغِلَ الجنود بالسرقة، فقتلوا الكثيرين ممن تصدوا لهم، بينما قام جنود آخرون بإلقاء أسلحتهم فى خسة، وبادروا بالفرار، حيث لم يكن بمقدور الرجال الأكثر شجاعة توقيفهم[٦]. أُصيب السيد لوبى دى فيغيروا بعيار نارى فى فخذه، وكان الأعداء سيقتلونه لو لم يقم حملة الدروع التابعون لإيثيخا بسحبه. كما تولى حملة الدروع أولئك تحرير رفيقهم الذى كان الأتراك قد أسروه وحبسوه فى سجن مظلم. كان الخوف وانعدام الحياء الذى اتصف به بعض الجنود فى ذلك اليوم عارماً، حتى بدا وكأنه غضب من السماء، لأنهم -دون أن ينتظر بعضهم بعضاً- لم يكونوا يعرفون أين يديرون ظهورهم للهرب من العدو؛ ففروا عدواً حتى النهر -الذى كان يبعد مسافة ربع فرسخ- بيد أنهم لم يشعروا حتى هناك بالأمان.

---

(٦) هنا كثرت الأحاديث عن جشع الجنود المسيحيين واهتمامهم بالغنائم وتركهم القتال إذا لزم الأمر. (المراجع)

فى غمار تلك الفوضى العارمة، نزل السيد خوان دى أوستريا من الربوة التى كان يعتليها، وبادر بأن يظهر نفسه لرجالنا المسيحيين فى شجاعة، لكى يجابهوا العدو ويقفون فى وجهه، أو على الأقل يتراجعون فى نظام، فقال لهم: "ما بالكم أيها الإسبان؟ مم تفرون؟ أين هى كرامة إسبانيا؟ ألا ترون أمامكم السيد خوان دى أوستريا، قائدكم؟ مم تهابون؟ فلتتراجعوا فى نظام، شأنكم شأن المحاربين، وتوجهوا وجوهكم صوب العدو! وسرعان ما ستجدون أولئك الهمجيين محاصرين من قبل أسلحتكم". أفلح السيد خوان، بواسطة تلك الكلمات وغيرها، فى بث الحماس فى الجنود وتجميعهم؛ وقد أحدق به الخطر المشترك، لأن أعداد المسلمين باتت تتزايد، وكانوا دومًا ما يعززون انتصارهم. بينما كان لويس كيخادا يسير فى ذلك اليوم لتجميع الرجال وتنظيمهم، أصيب بعيار نارى فى الذراع، حيث اخترقت الرصاصة تجويف الكتف؛ فأمر السيد خوان دى أوستريا بسحبه من الموقع، وبأن يتولى تيّو غونثاليث دى أغيلار حمله إلى كانييس لمداواته برفقة فرسان شريش الفرنتيرة. كما قام السيد خوان بالتراجع مع باقى الرجال على أفضل نحو ممكن، فى دلالة كبرى على شجاعته التى لا تقهر؛ حيث هرع لتلبية كل الاحتياجات معرضًا نفسه للخطر. فقد تلقى عيارًا ناريًا من إحدى البنادق فى الرأس، اصطدم بالخوذة القوية التى كان يعتمرها؛ ولولا الصلابة الشديدة للخوذة، لكان قد قُتِل.

فى النهاية، بعد أن لاحق المسلمون مسيحيينا لما يزيد على ربع فرسخ، وألحقوا بهم خسائر طفيفة فى المؤخرة، رجعوا فى تلك الليلة إلى سيرون، وتوجه السيد خوان دى أوستريا إلى كانييس. كان هناك بعض الجنود ممن دلفوا إلى البلدة لم يتمكنوا من التراجع، فتحصنوا فى المنازل والكنائس وظلوا يقاتلون المسلمين على مدار ثلاثة أيام، فدافعوا عن أنفسهم حتى أضرم المسلمون فيهم النيران وأحرقوهم بالداخل. قُتِلَ فى ذلك اليوم ستمائة رجل من جنودنا، بينما كانت هناك أنباء عن أربعمائة قتيل من الأعداء، بالإضافة إلى أسر الكثير من الموريسكيات(٧). هذا وقد فقدنا -علاوةً على سمعتنا-

---

(٧) يحاول مارمول أن يكون دقيقًا، فعندما يتحدث عن قتلى المسلمين يستخدم تعبير "أشيع". لكنه لا يوضح لنا كيف تم أسر الموريسكيات. (المراجع)

ما يربو على ألف من حملة البنادق والسيافين. في أعقاب الظفر بالبلدة، انتشى المسلمون بذلك الانتصار، وأقاموا أفراحًا كبرى. مكث جيشنا في كانيس لعدة أيام، وفي أثناء تلك الفترة توفي لويس كيخادا متأثرًا بجرحه، وقد شعر السيد خوان دي أوستريا بالأسى البالغ لوفاته، نظرًا لما يحس به من حنو تجاهه، فقد كان فارسًا صالحًا، وقد خدم مع والده الإمبراطور منذ صغره، وكان حاضرًا معه في كل الحروب التي خاضها، إلى جانب الثقة الكبيرة التي كان يوليها إليه وإلى إخلاصه، حيث كان يوقره وقد تولى تربيته منذ صغره، عندما كان لا يعلم من هو والده، وكان يناديه بالعم، بينما كان يلقبه هو بابن الأخ.

وصلت أنباء تلك الواقعة إلى جلالة الملك في أثناء وجوده في قرطبة، وذلك من خلال الكتاب الذي أرسله السيد خوان دي أوستريا إلى جلالته في التاسع عشر من فبراير. وقد قص فيه على جلالته كيف لم يتسن له الظفر ببلدة سيرون نظرًا لمخالفة الجنود للأوامر، كما طلب من جلالته تدعيمه بعدد أكبر من الرجال لكي يتمكن من مواصلة تقدمه. في أعقاب ذلك بُعِثَت رسالة إلى مدن أبدة وبياسة وجيّان، التي كان سيمر بها ألفان من جنود المشاة القادمون من قشتالة ومن مملكة طليطلة، تحمل أوامر إلى الجنود بإيقاف مسيرتهم -أينما يصلهم ذلك الكتاب- نحو غرناطة -وفقًا للأوامر التي صدرت إليهم من قبل- ليتوجهوا إلى جيش السيد خوان دي أوستريا. كما تمت مراسلة دوق سيسا لكي يبعث إلى السيد خوان بأكبر عدد من الرجال يتسنى له الاستغناء عنه، على ألا يعاني هو نقصًا في الجنود يحول دون قيامه بالمهام المنوطة به في تلك الأرجاء؛ وتحضه الرسالة على أن يسارع بالدخول إلى البشرات، لما سينجم عن ذلك من إضفاء المزيد من الزخم إلى ما يسعى السيد خوان دي أوستريا إلى تحقيقه في نهر المنصورة. بيد أنه حينما وصلت تلك الأوامر كان قد غادر غرناطة بالفعل، وكان يجمع جيشه في البادول على النحو الذي سنتطرق إليه في الفصل التالي. سوف نترك السيد خوان دي أوستريا الآن وهو يعيد ترتيب صفوف جيشه، لكي نتحول إلى ما كان يدور في تلك الآونة في غرناطة.

الفصل الثامن

يتناول التدابير التى اتخذها دوق سيسا فى غرناطة، وكيف خرج لحشد جيشه فى البادول من أجل اقتحام البشرات.

قبيل مغادرة دوق سيسا لغرناطة، قام باتخاذ التدابير التالية من أجل تزويد المدينة والمعاقل الحدودية بالحراسة والتأمين اللازمين: أن يبقى تحت تصرف كونت تينديا فى حصن الحمراء كل من: القائدين لورينثو دى أبيلا وغاسبار مالدونادو مع كتيبتيهما، وأنطونيو مارتينيث كاماتشو Antonio Martínez Camacho مع خمسين جنديًا؛ أن يمكث بالمدينة ستة من فرق المشاة يقودها كل من: خوان نونيث دى لا فوينتى Juan Núñez de la Fuente، والسيد كريستوبال دى ليون Cristóbal de León، والسيد دييغو دى بيرا Diego de Vera، وفرانثيسكو مونتيسدوكا Francisco Montesdoca، والسيد لوبى أوسوريو Lope Osorio، وبارتولومى بيريث ثوميل Bartolomé Pérez Zumel -قائداً على تلك الفرق كلها-، وخوان فرانكو Juan Franco قائداً للجنود. يضاف إلى ذلك ثلاثة من كتائب الفرسان التى تتبع ماركيز مونديخار، ويترأسها السيد بيرناردينو دى مندوثا Bernardino de Mendoza، و مارتين نوغيرا؛ إلى جانب خيرونيمو لوبيث دى ميا Jerónimo López de Mella ورجاله. كان ذلك الرجل من أهالى ميدينا دى ريوسيكو Medina de Rioseco، وكان رجلاً يمتلك ثروات ضخمة فى تلك الأراضى؛ وقد قطع هو وشقيقه المدعو بلاس لوبيث دى ميا Blas Lopez de Mella مسافة مائة وستين فرسخًا، من أجل أن يأتى ليقدم خدماته فى تلك الحرب على نفقته الخاصة؛ كما جلب معه ثمانية فرسان من حملة الدروع، وعشرة من حملة البنادق، وفيما بعد باتت أعداد الرجال لديه فى تزايد.

وفيما يتعلق بالغوطة، فقد صدرت الأوامر ببقاء كتيبتى أنطونيو دى بابينا Antonio de Baena وبدرو نابارّو Pedro Navarro، مع ستمائة من المشاة. كما أمر بإيداع خمسين من الجنود فى مدينة سانتا فى، ليخدما بها بشكل اعتيادى مع سلاح الفرسان التابع لدوق أركوس Arcos. فى الوقت ذاته، بقى فى الغوطة لواءا الفرسان التابعان للاثارو دى بريونيس Lázaro de Briones وغاسبار دى أغيليرا Gaspar de Aguilera. يظل إيرنان لوبيث Hernán López، مع ثلاثمائة رجل من فرق الحراسة، فى كل من الفخار، وثوبيا، وغوخار. مكثت فى غيخار أربعة فرق مشاة، وقد تولى قيادتها كل من: بدرو دى لا فوينتى Pedro de la Fuente، ولويس كويبو دى بيلتشيس Luis Coello de Vilches، وإيرناندو بيثيرًا دى بيسكوسو Hernando Becerra de Moscoso، والسيد فرانثيسكو دى مندوثا -حاكم الحصن وقائده. وقد أودع ذلك الأخير مائة جندى فى بينيا من أجل حماية ذلك الممر، كما بقيت فى نيبار Níbar كتيبة السيد فرانثيسكو التابعة لجبهة القنطرة.

أصدر دوق سيسا أوامره إلى المأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى، لكى يعاود لفت نظر قادة كل تلك الائتلافات حتى تكون قواتهم على أهبة الاستعداد -مشاة كانوا أم فرسان-. وأن يكلّف السيد بدرو دى بارغاس -أحد وجهاء تلك المدينة[٨]- بقيادة فرق المشاة، وأن يتولى خورخى دى بايثا منصب قائد الجند؛ وأن تستمر دوريات الحراسة والنوبات والفرق على النهج المتبع حتى ذلك الوقت. ظلت قيادة شؤون الحرب والسلام فى يد سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، وكان السيد غابرييل دى كوردوبا Gabriel de Córdoba يحضر جلسات المجلس معه بوصفه مشرفًا على المقاتلين، وأن يضطلع بتنفيذ ما يتم إقراره هناك، ليتولى بذلك مهام القائد العام. على أن يحضر معهم الجلسات المأمور القضائى وكل من يتراءى للرئيس دعوته، وفقًا لمقتضيات الأمور التى تعن لهم. قام دوق سيسا بإقرار كافة تلك الأمور قبيل مغادرته لغرناطة؛

(٨) كان فى كل مدينة أربعة وعشرون وجيهًا. (المراجع)

وعندما بدا له أن الوقت قد حان، انطلق من تلك المدينة فى اليوم الحادى والعشرين من شهر فبراير من عام ١٥٧٠، ليصل فى اليوم ذاته إلى البادول، وهو الموضع الذى كان ينبغى حشد جميع الرجال به.

كان السيد خوان دى مندوثا فى لاس ألبانيويلاس، التى كان قد قصدها من أجل تجميع الكتائب التى أخذت فى التوافد من المدن وسادة الإقطاع، وقد حضر إلى البادول فى الثالث والعشرين من شهر فبراير. توقف الدوق فى ذلك المقر لعدة أيام، حيث كان ينتظر الرجال والزاد والأسلحة التى كان يتعين مجيئها من مالقة، إلى جانب إقامة الاستحكامات فى كل من الساقية ولاس ألبانيويلاس وبلدان غواخار. أودع دوق سيسا فى لاس ألبانيويلاس السيد غوتيّرى دى كوردوبا Gutierre de Córdoba يرافقه ألف من جنود المشاة ولواء من الفرسان. كما بعث بالقائد أنطونيو دى بيرّيو Antonio de Berrio إلى بلدان غواخار مع خمسمائة من حملة البنادق، وبدون فرسان، لأن تضاريس الأرض ليست موطأة للخيل. وقد أمر أيضًا بإقامة معاقل فى البادول والساقية لتأمين هاتين الجبهتين.

أرسل دوق سيسا إلى خابينا Javena السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس مع خمسين من حملة البنادق، بالإضافة إلى لواء فرسان بياسة الذى يتبع خوان دى كارباخال، حيث كان جلالة الملك قد أمر بإيداعه هناك برفقة بعض الفرسان، حتى يتمكن -لكونه محل ثقة الثوار- من إجراء بعض الاتصالات معهم، لكى يسلموا أنفسهم على النحو الذى كان قد اقترحه، حيث كانت هذه هى اللهجة السائدة آنذاك. فجلالة الملك -كما ذكرنا آنفًا- كان راغبًا فى إحلال الوئام بين رعاياه بدلاً من تحقيق الانتصار عليهم. وحتى لا يبيت الناس من دون عمل ويكتفون بالتهام المؤن فى بادول، فقد أمر الدوق بالقيام ببعض الغارات، فى أثناء تنامى حجم الجيش ووصول الزاد والأسلحة والذخائر المنتظرة من غرناطة ومالقة وغيرها من الأماكن؛ كما تم نصب كمائن للمسلمين الذين يجوبون الوادى.

تم إلقاء القبض على بعض المسلمين، وقد فُهِمَ منهم مخطط الأعداء، وكيف أن الحبقى قد أُرسِل إلى نهر المنصورة بوصفه قائداً عاماً، وقيامه هو وكافة رجال البشرات بالتمركز فى أندرش. بالإضافة إلى كونهم لا يهدفون إلى الحيلولة دون دخول جيشنا إليها، وإنما مضايقته عن طريق الإغارة على قوات المؤخرة ومواكب الإمدادات؛ لكي يُلجئوهم إلى التخلي عن تلك المهمة، بعد أن ينال منهم الجوع والإرهاق وعدم إحراز أية مكاسب؛ وقد كان الحبقى والقادة الأتراك من مناصرى ذلك الرأى. وكذلك فقد تم إرسال أربعة آلاف مسلم، مع الراندانى والماكوش وقادة آخرين، إلى المنطقة الغربية من أجل الغرض ذاته؛ وكان الجزء الغالب منهم ينتمون إلى تلك الأقاليم وإلى جبال منتميس. وقد صدرت إليهم الأوامر بأن يودعوا أربعمائة رجل فى قلعة لانخارون، وأن يسعون إلى الدفاع عنها، حتى يتسنى لهم الانطلاق من هناك والانقضاض على جيش دوق سيسا فى أثناء عبوره. كما عرض عليهم الحبقى أن يهب لإغاثتهم بكل ما أوتى من قوة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وقال لهم إنه يثق فى النجدة التى يتطلع إلى قدومها من الجزائر.

سوف نعرض فى هذا الموضع خطابين، كان أحدهما قد كتبه ابن عبو إلى مفتى قسطنطينة -الذى يتولى منصباً شبيهًا بالأسقف-، والأخرى من أمين سر أولوج على، وقد كان الداعى منها إفهام ابن عبو أنه لم يتم إغفال ذلك الشأن. وسوف نعود فى أعقاب ذلك إلى استئناف أحداث تأريخنا.

رسالة ابن عبو إلى مفتى القسطنطينية، التى يطلب فيها النجدة من الباب العالى

"الحمد لله. من عبد الله الواثق به، والكائن بحوله وقوته. المحارب فى سبيل الله، أمير المؤمنين، ومعظم الشريعة، هازم المارقين الملحدين، وقاهر الجيوش التى تنازع الله، مولاى عبد الله بن عبو -رفع الله منزلته، ووطّد ملكه. إنه الداعم لثورة الأندلس، من أيده الله ونصره. إلى صديقنا، وعزيزنا الغالى، السيد المبجل والموقر، الشريف،

الكريم، العظيم، المقدام، العادل، المتصدق، التقى، من أنعم الله عليه بالصفح والمغفرة.
ثم أما بعد، سلام من الله عليكم ورحمة منه وبركات. أخونا وصديقنا الغالى، لقد وصلنا نبأ منكم، كيف أنكم أخذتكم الشفقة بالأناس المخذولين كسيرى النفس، ولطالما كنتم تولون عناية للسؤال عنا والتأكد من أحوالنا، وكم آلمكم كل هذا الشقاء والضغوط التى أخضعنا لها أولئك المسيحيون! كما أن الملك المعظم القادر قد بعث لنا برسالة مختومة بختمه، يعدنا فيها بإغاثتنا بأعداد ضخمة من أسطول جلالته، وكل ما يلزمنا بعد من أجل الحفاظ على هذه الأرض. ولمّا كنا فى كرب عظيم مع أولئك الأشرار، فها نحن نطرق من جديد أبوابكم العالية، لنطلب الغوث من جانبكم لكى نحرز النصر بأيدينا. لذا فلتعينونا، أعانكم الله العلى القديرعلى الناس أجمعين! ولتنقلوا مطلبنا إلى الملك القدير، ولتحيطوه علماً بأحوالنا وما كان من شأننا، ولتخبروه بالحرب الضروس التى نخوضها فى الوقت الحالى. قولوا لجلالته أن يتفضل بمد يد العون لنا، وأن يبادر بإغاثتنا على وجه السرعة قبل أن نفنى، لأن هناك جيشين مهيبين يتجهان نحونا للانقضاض علينا من ناحيتين. وإذا ما هلكنا فسوف تُسألون عنا، وتحاسبون أشد الحساب يوم القيامة. وأسباب ذلك قد يطول شرحها فى هذا الموضع، ولما كان هذا الرجل لا يملك جهداً أو مقدرةً للمزيد من الأحاديث، فإنى أختم كلامى. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كُتِبَ فى يوم الثلاثاء، الحادى عشر من شهر شعبان المحرم من عام ٩٧٧، الموافق -تبعاً لتاريخنا- الحادى عشر من شهر فبراير لعام ١٥٧٠. وقد ذُكِر فى العنوان: يسلم إلى السيد النائب السامى والمستشار الأكبر فى قسطنطينة، وفقه الله".
عُثِر على تلك الرسالة فى مغارة كاستاريس بين أوراق ابن عبو، وقد أُمِرَ بترجمتها لاحقًا فى غرناطة؛ حيث سلّمها القائد الأعلى لرهبانية قشتالة العسكرية إلى السيد خوان دى أوستريا، الذى أرسلها بدوره إلى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا من أجل ذلك الغرض.

رسالة أمين سر ملك الجزائر لابن عبو

"بسم الله الرحمن الرحيم. حفظ الله صاحب المقام الرفيع، السابغ، الجواد، الملك السعيد محمد عبد الله بن عبو. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. نحيطكم علماً أننا قد تسلمنا الكتاب الذى أرسلتموه إلينا بشأن أحوال بلدكم وأعداء دينكم، ونحن ندرك ما نقلتموه إلينا مما قاله ملك إسبانيا، وأنه عازم على القضاء عليكم. سوف نكون نحن من يتولى -بعون الله- القضاء عليه. من أجل ذلك فإننا نرسل إليكم الأسلحة والبنادق والبارود والرصاص الذى ترونه، والذى يمثل جل ما نقدر عليه فى الوقت الحالى. وفيما يتعلق بقولكم إننا لم نقدم لك العون لأن مدننا تفتقر إلى الرجال، فإنى أقسم لكم بالله إنى لا أعلم أن ذلك الأمر قد قيل لكم هنا. بل إننا نرغب فى إغاثتكم لما نحسه تجاهكم من مشاعر الود، ونظراً للمحبة الشديدة التى يكنها لكم جلالة الملك -رفع الله قدره. لذا لا تخافوا، لأن الملك كان لابد له من الذهاب إلى مدن إفريقيا، وأعنى مدينة تونس، لكنه لم يغادر حتى أرسل سفينةً شراعيةً صغيرةً إلى قصر السلطان -رفع الله قدره- على سواحل تركيا، ليحيطه علماً بما كان من أحوالكم. وسوف يقوم ملكنا -حفظه الله- بالانطلاق صوب تلك الأراضى -بإذن الله- عقب الانتهاء من زيارته.

لقد تنامى إلى علمنا أنه اختلف مع ملك تونس حول مدينة تدعى باجة Bexa، وأنه طرده منها، وقد أيد الله ملكنا بالنصر، وسحق جيش الملك الآخر، وقتل ألفين من رجاله؛ وقد فر ملك تونس هارباً مع مائتى فارس، ودخل ملكنا إلى تونس؛ وسرعان ما سيحضر إلى هذه المدينة، ويأتى لنجدتكم، ويبعث بالأسطول الذى سيبحر -بحول الله- ليتولى إغاثتكم ويدعم قصدكم. لقد سمعنا أنكم أسرتم شقيق الماركيز. إن كان ذلك قد حدث، ووقع الرجل بين أيديكم، فابعثوا به إلى الملك، وأرسلوا أيضاً شيئاً آخر قبيل وصوله، من أجل أن نقدمه إلى الملك فى يوم مجيئه ونقول له: "انظر ههنا الهدية التى بعث بها إليكم ملك الأندلس". وهكذا سنزيد من رغبته فى مد يد المساعدة إليكم، فأنتم اليوم قد صرتم جزءاً منا. أستحلفكم بالله أن تقوموا بذلك، ونحن نؤكد لكم أن ما نقوله

هو الصدق، وسوف يطلعكم صديقنا قاسم -وهو أحد رعايانا- على باقى الأمور. لا تنصتوا لكلام الناس، وقوموا بما يخبركم به قاسم. كان هذا ما أردنا إيصاله إليكم. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. الفقير إلى الله، أمين سر مولانا الملك -رفع الله قدره". كانت الرسالة تحوى على ختم أولوج على الذى نعرفه، كما كُتِبَ فى عنوانها: "فليحفظ الله الحاكم العظيم، المبجل، المعظم محمد عبد الله بن عبو". وقعت تلك الرسالة أيضًا فى الأصل بين يدى السيد خوان دى أوستريا، وقد ترجمها إلى الإسبانية الأب كاستيّو بمقتضى أوامره.

الفصل التاسع

ويتناول كيف طاف السيد أنطونيو دى لونا بجبل منتميس، وأقام معقلاً في صالحة، وإجلاء الموريسكيين من بعض بقاع الشرقية في مالقة.

إضافةً إلى التدابير التى ذكرنا أن دوق سيسا كان قد اتخذها إبان مغادرته لغرناطة، هناك إجراء آخر كان من الممكن أن يكون على قدر بالغ من الأهمية، لو لم يخذله الناس في الوقت الحاسم. وكان يتمثل في إرسال السيد أنطونيو دى لونا ليجوب ويؤمن جبل منتميس وأراضى بلش مالقة، التى كان الدرّة وقادة المسلمين الآخرون يلحقون بها خسائر فادحة؛ وكذلك تجميع الموريسكيين المستسلمين في بقاع بورخى، وقمارش، وكوتار، وبنى مارغوسا Benamargosa، وإرسالهم إلى أماكن تقع إلى الداخل: علاوةً على إنشاء ثلاث نقاط حصينة، وإقامة معاقل في صالحة وكومبيتا ونيرخا؛ ثم يتبع ذلك بالتوغل إلى المنكب، في أثناء تفقده للساحل، من أجل إلهاء الأعداء، وإحراق ما لديهم من مؤن وتجويعهم. كانت الأوامر قد صدرت إلى المأمورين القضائيين في أنتيقيرة ومالقة لكى يدعماه بإمدادات من جنودهم المشاة والفرسان من أجل الاضطلاع بتلك المهمة. فبادرا بتلبية النداء، حيث تم إرسال كل من: السيد فادريكى مانريكى Fadrique Manrique برفقة قوات أنتيقيرة، والسيد غوميث ميخيًا دى فيغيروا في صحبة رجال لوشة والحامة وقلعة يحصب، وأرّيبالو دى ثواثو مع قوات مالقة وبلش، والأب سوتو مع رجال أرشيدونة؛ ليضحى قوام القوات كلها خمسة آلاف رجل.

احتشدت القوات فى كانييس دى أثيّتونو فى أول أيام شهر مارس، وتوجه الجيش إلى كومبيتا وهو يحسب أنه سيلقى شيئًا من المقاومة؛ وحينما لم يتصد له أحد، واصل طريقه إلى نيرخا، وقام فى أثناء الطريق بالإغارة على حصن فريخيليانا، الذى ظهر عند قاعدته ما يقرب من مائة مسلم، قاموا بالاشتباك مع جنود الطليعة البواسل. فر المسلمون هربًا باتجاه الحصن وهم يحملون لواءهم، فصعد رجالنا خلفهم، وقتلوا ستة منهم بينما انفرط عقد الباقين بين تلك الجبال ولم يُشاهدوا فيما بعد، كما تم أسر إحدى عشرة مسلمة. بات الجيش ليلته تلك فى نيرخا، ومكث فى ذات الموضع خلال اليوم التالى لانتظار المؤونة القادمة من بلش ولوشة. فى تلك الأثناء أرسل السيد أنطونيو دى لونا حملة البنادق لتفقد الجبل من ناحيتين، فقتلوا مسلمين أو ثلاثة، وأسروا ست نساء. حينما تنامى إلى علمه أن الدرّة قد أعد قاربًا للذهاب إلى شمال إفريقيا، اصطحب السيد أنطونيو المسلم الذى حمل إليه النبأ ليريه إياه، فوجده فى طريق غير واضح للعيان، كما وجد فى بقعة أخرى مماثلة قاربًا آخر كان قد بُدِأ العمل فيه، بالإضافة إلى غلاية من القطران ، وأخشاب، فأمر بإحراقها كلها.

حينما أراد السيد أنطونيو الانطلاق من هناك فى يوم السبت الموافق الرابع من شهر مارس، وجد أن جميع الرجال تقريبًا قد هجروه، حيث تذرع البعض بقلة الطعام، بينما تعلل أخرون بإدراكهم أن تلك الحملة لن تؤمن لهم مكاسب ثمينة، لأنه لم يعد هناك سوى أشياء قليلة يمكن الاستيلاء عليها فى تلك الأرض. قال السيد غوميث ميخيّا دى فيغيروا فيما بعد إن السيد أنطونيو دى لونا قد أمره بالتوجه إلى لوشة برفقة أولئك الرجال التابعين للمدن الثلاث، حيث تراءى له إن قوات أنتيقيرة ومالقة وبلش تكفيه، على ضوء ما كان يعانيه من نقص فى المؤن. وعلى أية حال، فقد ألفى القائد نفسه مع ألف رجل فقط، وعقد العزم على المضى قدمًا برفقتهم عبر طريق الساحل المباشر إلى المنكب. لمّا كان من غير الممكن سلك طريق آخر مع الخيول والأمتعة، قضى الجيش الليلة على الطريق عند مصب نهر مييل Miel. إبان بلوغ المنكب، تزود ببعض المؤن من أجل الذهاب إلى لينتيخى Lenteji، الذى كان أحد الجواسيس قد قال إنه يوجد به

خمسة آلاف مسلم؛ وهو ما كان كذبًا، لأنه لم يكن به سوى خمسمائة رجل. خالجت القوات بعض مشاعر الخوف إزاء تلك الأنباء، فاصطحب السيد أنطونيو دى لونا مائتى جندى من ذلك المعقل، وتوجه خلال تلك الليلة للمبيت على مسافة فرسخ ونصف من هناك، فى منتصف الطريق.

فى يوم الثلاثاء الموافق السابع من مارس، انطلق الركب فى الصباح الباكر ليصل إلى البلدة فى الساعة التاسعة، وكان يظن أنه سيلقى الأعداء هناك؛ بيد أنه ألفاهم قد هربوا عند انتصاف الليل إلى الأسفل. قتل الجنود خمسة رجال كانوا قد عثروا عليهم فى المكان، وأسروا واحدًا، واستولوا على بعض الأمتعة. وقد قام جنود المنكب -الذين كانوا قد أضيروا من أولئك المسلمين- بإضرام النيران فى المكان وإحراقه بالكامل. عُثِرَ هناك على قدر من الزبيب، وكميات وفيرة من الزيت، والقليل من الخبز فى المنازل والكهوف؛ فأُحرِقت كلها وسكبت. وقد تم اتباع النهج ذاته، من تدمير وإحراق للمؤونة، فى الأماكن التى كانوا يصلون إليها. عُرِفَ من المسلم الذى كان قد وقع فى الأسر كيف أن المسلمين يتوجهون إلى مروج لوبيرا، ونظرًا لأن الوقت كان لا يزال مبكرًا، فقد عزم السيد أنطونيو دى لونا على ملاحقتهم، حيث راح وأمضى تلك الليلة فى إحدى الضيعات التابعة لماركيز مونديخار. أما المسلمون الذين كانوا متقدمين، فقد انحرفوا إلى جهة اليسار قبيل الوصول إلى المروج، وقصدوا ألميخار Almijar.

فى غضون تلك الليلة، وفى أثناء وجود الجيش فى الضيعة، انسحب منه ما يزيد على خمسمائة رجل. ولمّا أراد القائد الانطلاق، ألفى نفسه فى صحبة ستمائة جندى فحسب من بلش ومالقة، إلى جانب عدد قليل من رجال أنتيقيرة، فمضى إلى مدينة الحامة -ووصل إليها فى التاسع من شهر مارس. طلب السيد ألونسو دى لونا من المدينة مؤنًا ومائتى رجل، وقد سار برفقة هؤلاء - بالإضافة إلى مائتين آخرين كان قد راسل المأمور القضائى للوشة من أجل أن يزوده بهم- وما كان قد بقى فى حوزته من الرجال، ليرجع إلى قلعة صالحة، التى كان قد خلّف بها القائد كريستوبال دى ريينوسو

مع الفرسان التابعين لسيد أندوخار وبعض المشاة. وعند دخوله إلى خاركيًا (الشرقية) قام بإجلاء الموريسكيين من الأماكن المريبة دون إثارة شغب أو فوضى، لأنهم كانوا غير محتاطين للأمر. تولى أرّيبالو دى ثواثو إجلاء موريسكيى البورخى، بينما اضطلع السيد فادريكى مانريكى بتلك المهمة فى قمارش، وقام بها السيد أنطونيو دى لونا فى كوتار وبنى مارغوسا؛ وقد توجه الجميع إلى المناطق الداخلية فى يوم السادس عشر من مارس. لمّا لم يكن مع القائد رجال يمكن له تركهم فى كوتار، فإنه لم يقم بها أى معاقل فى تلك المرة.

الفصل العاشر

يتناول الكيفية التى بدأت بها المفاوضات الرامية إلى استسلام الثوار.

كان جلالة الملك تراوده رغبة عارمة فى حمل الثوار على الاستسلام، مدفوعًا بطبيعته الشفيقة، وبما رآه من أن جانبًا كبيرًا منهم لم يكن قد قام بالثورة طواعيةً، أو اقترف آثامًا وانتهك حرمة المقدسات على النحو الذى نهجه آخرون. علاوةً على ذلك فقد كان الأمر يتعلق باتحاد وحلف الأمراء المسيحيين فى مقابل تركيا، التى كانت تهدد شعوب المشرق بأسطولها القوى. ولمّا تعين على السيد خوان دى أوستريا الذهاب بوصفه قائدًا عامًا على جيش ذلك الحلف، فقد كان لابد له من وضع نهاية لذلك الأمر الذى بين يديه. حيث أن البابا بيو الخامس Pio V -طيب الذكر- كان قد أرسل إليه سفيره مع السيد لويس دى توريّس Luis de Torres -وكان من مواليد مدينة مالقة، وصار فيما بعد رئيسًا لأساقفة مونريال Monreal- لكى يحض جلالته، على السعى إلى تحقيق الوفاق العام والدفاع عن الشعب الكاثوليكى.

على ضوء ذلك التنبيه توجه السيد خوان دى سوتو Juan de Soto إلى الجيش، ليشغل منصب أمين سر السيد خوان دى أوستريا. وبعد التعرف على رغبة جلالة الملك، بدأ السعى الحثيث فى مسألة الاستسلام. كان هناك بعض الرجال البارزين، ممن كانت تربطهم علاقات صداقة مع زعماء المسلمين قبيل اندلاع الثورة، عرضوا أن يتولوا إخضاعهم؛ خاصةً السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، الذى كان قد ذهب لإقامة معقل فى خايينا -كما أسلفنا- لكى يتسنى له عقد محادثات معهم. وكذلك السيد إيرناندو دى باراّداس -أحد مواطنى وادى آش- ، وغيرهم ممن أرادوا أن

يتركوا أثرًا طيبًا فى هذا الصدد، لكى يتلافوا طرد الموريسكيين المسالمين عن طريق إحلال السلام واستسلام الثوار.

كان السيد إيرناندو دى بارّاداس قد حصل على إذن من جلالة الملك يخول له الكتابة إلى إيرناندو الحبقى -وكان صديقًا مقربًا له-، حتى أنه كان قد قابله فى يوم الخامس عشر من شهر فبراير عند أحد تلال جبل شلير، عندما كان المسلم فى طريقه لتولى القيادة العامة للقوات بدلاً من خيرونيمو المالح -الذى كان قد توفى على أثر مرض ألم به. وكان برفقته خمسمائة من الرماة -بينهم مائة من الأتراك يصحبهم لواء ملون- بينما اصطحب السيد إيرناندو دى بارّادا خمسة فرسان فحسب. تباحث الأمر معه، ونصحه أن يغتنم الصفح والعفو من جلالة الملك، لأن هناك فرصة جيدة مواتية للقيام بذلك؛ وقد وعده هو أنه سيبحث أفضل السبل لعرض الأمر على أصدقائه، وأفهمه أن لا أحد يرغب فى هذا الأمر أكثر منه، وأن هناك العديد ممن يدينون بالرأى ذاته بين صفوف الثوار. وانطلاقًا من تلك الأسس، اتخذا بعض التدابير من أجل استمالتهم إلى ذلك الهدف عبر بعض السبل.

فى خلال سعى الرئيس بدرو دى ديثا إلى أن يدرك الثوار بشكل عام أن هناك مجال لنيل العفو من جلالة الملك إذا ما وضعوا أسلحتهم -وهو ما كان الثوار الجبليون، وأصحاب النفوس المثقلة بما اقترفته من آثام جسيمة، يصدوهم عن تصديقه- عمد الرئيس بحذق إلى إصدار أوامره إلى الأب كاستيّو[9]، من أجل أن يكتب إليهم رسالة باللغة العربية لاستمالتهم. بحيث يقلل فيها من شأن المساعدة والدعم الذى سيمدهم به الأتراك[10]، ويبدد ما لديهم من تطلعات، ويضخم كثيراً من نفوذ جلالة الملك ورحمته، وأن يلجأ إلى حجج مناسبة ينصحهم من خلالها بالبحث عن وسيلة ما للاستسلام.

---

(٩) يتحدث عن ألونسو ديل كاستيّو. (المراجع)

(١٠) كانت السلطات الإسبانية تعلم أن الخطر التركى مجرد أسطورة. هذا ما يشير إليه ماركيث بيانويبا فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المراجع)

قام الأب كاستيّو بكتابة الرسالة، ولم يتم إدراج اسم المؤلف حتى يبدو وكأنه أحد المرابطين أو الفقهاء الذين يأسون لأحوالهم لكونهم يودون بأنفسهم إلى التهلكة؛ ثم تم استنساخ العديد من النسخ، التي تولى حملها أحد الجواسيس إلى بقاع البشرات، وألقاها في أماكن يمكن للأهالي العثور عليها وقراءتها. وقد تمت إحاطتنا لاحقًا إلى أنها أحدثت أثرًا بالغًا بين الرجال ذوي الإدراك الحسن، وبين كل من يرغبون في استقرار الأوضاع بشكل عام[11]؛ لذا فنحن نوردها في هذا الموضع، بعد ترجمة نصها إلى اللغة الإسبانية، وقد جاء فيه:

رسالة إقناع

"بسم الله الرحمن الرحيم. لا حول ولا قوة إلا بالله، والصلاة والسلام على أفضل رسله وعلى آله وصحبه ومن والاه. السلام على من اتبع الهدى وصدق بكلماته، أولئك في هذه الدنيا هم الفائزون، وفي الآخرة هم المفلحون. القادة، والشيوخ، والزعماء، وقادة الجيوش، وغيرهم من السادة، والأصدقاء، وفاتحي البشرات وأرجائها، سلام من الله ورحمة وبركة عليكم أجمعين، ونسأله من فضله أن يعيننا. هذا هو ما يرجوه لكم صديقكم المقرب، الحريص كل الحرص والمهموم بتحقيق منفعتنا العامة والحفاظ على حياتنا وكرامتنا، من أولى عناية بالغة لدراسة أحداث حربنا، وما نسعى إلى تحقيقه من خلالها، ومن سعى بينكم دومًا يتدبر الأمور التي تحدث، والوقائع التي يمكن أن تقع في المستقبل، من أجل صيانة أرواحنا وأعراضنا. وبعد أن بت ساهرًا للبحث عن سبيل للحفاظ على ما بدأناه واستكماله، فإني أجد نفسي في حقيقة الأمر مدفوعًا بحبي لكم، وواجبي تجاه خدمة الله العلي، لكي أفصح لكم عما يراودني بصدق في هذا الأمر،

(١١) يمكننا أن نتحدث عن "حرب الوثائق" في تلك الفترة. الآن نجد أن السلطات الرسمية تزيف وثيقة لكي تمارس الحرب النفسية ضد الثوار، أما الموريسكيون فقد كتبوا "الألواح الرصاصية" وزعموا أنها أثر مسيحي، ولم يكتشف الفاتيكان زيفها إلا بعد عقود طويلة، وبعد أن أحدثت لغطًا كبيرًا. (المراجع)

آملاً أن أنال العفو يوم العرض العظيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ما توصلت إليه، بعد بذل الجهد من جانبي، هو أننا قد أخطأنا وجانبنا الصواب فيما يتعلق بذلك الفتح الذى نسعى جميعًا -نحن الواثقين، والبانسين، والأشقياء- لتحقيقه، استنادًا إلى علات واهية وقوى فاسدة ووعود جوفاء لا تستطيع قيادتنا إلى القصد التى نبتغيه. وإذا ما انصعنا إليها، فلتتأكدوا أننا سوف نهلك من جراء وثوقنا في نجدة الأتراك لنا وركوننا إليهم. فنحن نرى بوضوح إنهم يهزأون بنا ويخادعوننا ويتمنون لنا الهلاك، فهم لا يسعون إلا إلى الاستيلاء على ثرواتنا ونسائنا وبناتنا -على النحو الذى شهدناه-، وحينما يثرون فإنهم سيرجعون إلى ديارهم ويتركوننا محملين بالهموم والنكايات، ليشرعوا فى ممارسة طغيانهم وآثامهم المعهودة، النابعة من طبائعهم الفطرية. وفيما بعد سيسخرون منا كما فعلوا من قبل، وكما اعتادوا أن يفعلوا أينما حلّوا. وأنا أقول لكم فى حقيقة الأمر أن هذا هو ما حدث بالفعل، وأن الكثير منهم قد أخبرنى أنهم لو لم يدركوا أنهم سيجنون من ورائنا فائدة تفوق ما حصّلوه إلى الوقت الحالى، فإنهم كانوا سينهبون ويستولون على ممتلكاتنا ثم يرحلون؛ وأنه من الأجدى أن يظفروا بها هم من أن يتركوها للمسيحيين. ولا يساورنكم شك فى ذلك، فهم قد شرعوا فى ذلك لكونهم -بحكم طبيعتهم- أناسًا غرباء وهمجيين، وهم يفتقرون كليًا إلى الولاء والشفقة. كما أنهم -بمقتضى الحال- طغاة يتسمون باللؤم، وهو أمر معتاد بالنسبة لأهل المشرق وأهالى شمال إفريقيا، وقد جاء ذلك فى أحد أمثالنا القديمة الذى يتناول ذلك الأمر، وينص على أن "كل ما يأتى من المشرق طيب، باستثناء الرجال والهواء".

هذا هو واقع الحال، ويمكن التثبت منه بالنظر إلى ما يقومون به فى كل يوم، وما أقدموا على فعله فى أماكن أخرى، على غرار ما جرى فى الجزائر، حيث تذرعوا بنجدة ملكها، وانقلبوا عليه فى غمار نشرهم الثورة فى المملكة، كما أخضعوا كل أهلها، وهى ما زالت إلى الآن تحت حكمهم واستبدادهم وتؤدى الجزية. ومن المؤكد أن الأهالى يودون دفع الجزية إلى أى ملك مسيحى آخر بدلاً من تأديتها إليهم. وقد فعلوا الأمر

ذاته في تونس إبان حكم خير الدين بارباروخا، الذى تظاهر برغبته في إغاثة أحد الملوك، ثم ثار عليه ، وهو ما كان سببًا فى هلاك المسلمين -كما نعلم جميعًا. كل تلك الأحداث بالإضافة إلى أحداث أخرى مشابهة وقعت فى زماننا. لذا فنحن نعلمها وندرك مدى قدرتنا على الوثوق فى الأتراك، فلننتبه جيداً إلى أفعالنا وما تحققه لنا، لكى لا يتحقق فينا قول رسولنا ، من أن أمتنا سوف تفنى ما بين البربر والعجم[١٢].

كما يتراءى لى أن الدوافع التى حملتنا إلى السعى وراء هذا الفتح، كالنبوءات التى تعدنا بتحقق ما تتضمنه من أحكام، ليست مؤكدة أو كافية؛ فتلك النبوءات تبشرنا بالفناء أكثر من أى شىء آخر. أما النجدة التى ستصلنا -وفقًا لنصها-، فلا يُذكر كيفية أو وقت قدومها، ولا يوجد بها إشارة إلى وقت محدد؛ وما يقوله بعضها ينافيه ويعارضه ما جاء فى البعض الآخر. فيما يتعلق بالعام الذى سيبدأ فى يوم سبت، فقد أخطأنا فى تلك المسألة أيضًا نظراً لقلة درايتنا، لأن العام الذى تذكره النبوءة يتفق مع تقويمنا القمرى، وليس التقويم الشمسى، كما هو الحال مع السنة التى بدأنا فيها تلك الحرب، فهذا هو التقويم المسيحى ولا يرد ذكره فى نبوءتنا. وإذا ما وافقت بداية العام أحد أيام السبت، فإن ذلك لا يعد مدعاة إلى كونه مخالفًا لأيام سبت أخرى بدأت فيها العديد من السنين الأخرى، وستبدأ فيها فى مرات قادمة، لن نقدم فيها على شن الحرب المذكورة.

بالإضافة إلى ذلك، فإننا نرى بوضوح التعارض ما بين النبوءات، ولا ينبغى أن نعتقد فى أمور مماثلة تحفل بشتى صنوف الاختلاف والتناقض. إحدى تلك النبوءات تقول إنه لن يهلك منا سوى فرد واحد من أصحاب المهن المتواضعة فى أثناء الفتح، وسيكون طحانًا؛ بينما تقضى أخرى -وهى الخاصة بزيد الجرجانى، والتى تعد أصدق النبوءات التى لدينا- بأن من سيتبقى منا بعد ذلك الفتح سيكونون قليلى العدد. وكذلك فإن النبوءات تحوى العديد من التناقضات الأخرى، بالإضافة إلى ذكر أشياء مستحيلة،

(١٢) التراث الموريسكى يحفل بالأحاديث الضعيفة والموضوعة. (المراجع)

تبدو وكأنها خيالات خرافية قد نسجت لخداع العوام: كرواية السحاب والطيور، وقصة الملكين جبريل وميكائيل، وقصة يد يوسف، وقصة سيف إدريس ملك فاس، وغيرها من الأساطير المشار إليها فى تلك النبوءات. ولا يمكن تصور كونها نبوءات أو أحاديث لنبينا، أو لأى نبى آخر نزلت عليه روح النبوة، بل يجب أن تكون سلوى وملهاة قام بتأليفها نفر من الفقهاء المعاصرين، من أجل إلهاء أسلافنا فى ممالك الأندلس تلك والإبقاء على الأمل بداخلهم. وأنا أقسم لكم بالله العظيم أن هذا الأمر قد أكده لى أشخاص نوو علم ودراية واسعة، قائلين إن ذلك كان المقصد والداعى وراء تلك النبوءات.

ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لألفينا ذكرًا لها فى القرآن، أو فى أى من كتب السنة والشريعة التى أقرها خلفاء وأتباع رسولنا؛ بيد أنه لا أثر لها، وهو ما ينزع منا الثقة تمامًا فى إضفاء المصداقية على أى من أجزائها -صغيرًا كان أم كبيرًا. بل إن ما تحويه السنة مخالف لما جاء فيها فى هذا الصدد، لأنها ستجلب لنا الدمار الشامل، وسوف يتحقق للمسيحيين الفوز الأبدى بأراضى أوروبا، على النحو الذى ذكره نبينا فى الكلمات التالية: "سوف يخرجكم منها الروم، ويودعونكم فى أراض قاحلة". علاوةً على ذلك فأنا لا أدرى من ذا الذى يمتلك القدرة على التشكيك فى سطوة ملك إسبانيا العظيم، وفى أننا -مقارنةً به- نبدو مثل الذبابة بالنسبة للفيل. ونظرًا لما أتينا به من أفعال غير لائقة تجاهه، فبمقدوره أن يقول لنا ما قالته شجرة السنديان الضخمة للحشرة -إذا ما لجأنا إلى التعبير الذى أمدتنا به اللغة لترمز إلى تلك الحرب- حيث ظلت الذبابة تطن داخلها لفترة من الوقت، ثم راحت تطلب منها العفو عما ظنت أنها أحدثته من ضوضاء، فأجابتها شجرة السنديان: "أنت بكل تأكيد لا يلزمك طلب الصفح، لأننى لم أشعر بك حينما دخلت إلى أغصانى، أو عندما رحلت عنها". وأنا أقول لكم فى حقيقة الأمر يا إخوتى، إن ذلك الملك المقتدر لو لم يعد تلك الأعمال الجنونية سوى الضجيج الذى أحدثته الحشرة، وأراد أن يثأر منا، فسوف يحصد أرواحنا فى ساعة واحدة، ولو لم يرسل إلينا من قومه سوى العرج. وإذا ما وضعنا ثقتنا فى النجدة التى

وعدنا بها أولئك الكاذبون المخادعون، فإننا سنزيد من غضبه علينا، وسنهيئ له الدافع الذى يجعله يصنع بنا ما صنعه هرقل بالأقزام، حيث قطعهم جميعًا إلى أشلاء حينما رأى تماديهم فى الغى ورغبتهم فى الصعود فوقه فى أثناء نومه.

كما أننى أود أن أحرركم من أوهامكم، لأنه لو هبت لنجدتكم جيوش الأتراك والعرب وملوك إفريقيا جميعًا، فلن يقدروا على تحقيق أى مكاسب مع ملك إسبانيا لأنه لا يقهر. وفى يومنا هذا يخشى جانبه ملوك الشرق والغرب، ولم نر أن أحدًا منهم جرؤ على التعرض له؛ بل إنهم يمعنون التفكير فى كيفية حماية أنفسهم والدفاع عنها فى مواجهته، وقد تمكن من الانتصار عليهم عند حدودهم، ولم يستطيعوا التعافى فيما بعد على الرغم من كل ما يملكون من قوة. إذا كان هذا هو حالهم، فما هو باعثنا على الثقة، وما الذى نستند إليه فى اعتقادنا أنهم سيتمكنون من التغلب عليه فى أراضيه المملوكة له، والتى تدخل فى حيازته وضمن نطاق ملكه فى إسبانيا؟! إذا ما تدبرنا هذه الأسباب السليمة والمقنعة، فإنه يبدو لى يا إخوتى أن علينا التفكر مليًا فيما نحن مقدمون عليه، وأن علينا أن نكف يدنا عن خيار الحرب، ونسعى إلى سبيل أقل إضرارًا بالنسبة إلينا، وأن نسلك نهج العقلاء الذين يقولون إنه فى حال تواجد شرين، فإن علينا اختيار أقلهما شرًا، فأن يكون الانسان أعور خير من أن يكون أعمى.

وأنا أدرك –مما شهدناه من هذا الملك من إنصاف شديد واعتدال– أنه سيقبلنا، فالزمن كفيل بذلك إذا ما كففنا عن إثارة غضبه. فعندما يتم ارتكاب الخطأ على نحو متهور، فإن باب الإصلاح يكون مفتوحًا فى البداية، بالقدر ذاته الذى يُغلَق فيه لاحقًا بسبب التمادى فى الغى. فكما جاء فى قولنا المأثور "من لا يستطيع ربح المباراة، فمن الأجدر أن يحتال على الأمر". وأنا أعلم جيدًا إنه سيتيح لنا تلك الوسيلة، لما شهدناه من تمهله ورويته؛ لأنه لو كان يسعى إلى أمر آخر، لقضى علينا خلال وجبة غذاء أو عشاء. وأنا أرى من وجهة نظرى أنه لابد أن يكون قد أقدم على ذلك بدافع الشفقة والعطف الذى يشعر به تجاهنا، أو على الأقل تجاه البعض ممن يدرك أنهم لم يشاركوا من قريب أو بعيد فى تلك الشرور، وهذه هى الحقيقة فى واقع الأمر.

فلنعر انتباهنا إذن إلى صوت العقل ولنأخذ بذلك النصح الجيد، وننهى تلك اللعبة قبل أن تقودنا إلى هلاكنا، والذى سيتم على نحو لن يكون هناك أكبر أو أسوأ منه، حيث سيكون الضياع الكامل لأملاكنا وشرفنا ورؤوسنا. وعسى أن يكون نصحى أجدى من الوعود الجوفاء من قبل الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، أو النبوءات التى أودعنا بها ثقتنا فى حماقة. ولعل ذلك الملك -الذى نحيا تحت رعايته- بمقدوره التحلى بالعطف نحونا، وخاصةً تجاه من يدرك، وتم إبلاغه، بأنهم أبرياء من تلك الحماقة التى أقدمنا عليها، كما هو الحال مع الغرناطيين. حيث أمر أن تشملهم عنايته وأواهم فى أراضيه، دون أن يسمح بأن ينالهم سوء -سواء قل أم كثر- نظير ما أثبتوه من إخلاصهم، من خلال عدم تبنيهم للثورة، أو مجيئهم إلى تلك الجبال الميئوس منها، لكى يقاسوا كل تلك البلايا التى نعانى منها ريثما ننتظر خروج العسل من بطن النمل.

عسى أن يهدينا الله إلى ما فيه صالحنا، ويعيننا على اتباعه، ويثيبنى على قصدى من وراء ما بينته لكم من أمور، وأن يتغمدنا وأولادنا برحمته. واغفروا لى عدم إفصاحى عن اسمى بينما أعلن لكم عن نواياى، فقد أقدمت على ذلك خوفًا من فرية من يرغبون فى المضى قدمًا فى تلك المغامرة السيئة، ولطالما كانت الحقيقة كريهة فى نظر من لا يقدرونها.

كتبها فى البشرات واحد من أصدقائكم المقربين، الذى يسعى لتحقيق الصالح العام للجميع، فى اليوم العشرين من شهر رمضان المعظم لسنة ٩٧٧. فلينعم علينا الله من فضله وبركاته، ويتغمدنا فى رحمته". وقد جاء فى العنوان: "إلى السادة القادة، والزعماء، ونواب مجالس بلديات البشرات رعاهم الله". كان هذا هو نص الرسالة. لنرجع الآن إلى الحديث عن جيش السيد خوان دى أوستريا.

الفصل الحادى عشر

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على بلدة سيرون، وظفر بها.

فى أعقاب قيام السيد خوان دى أوستريا بتعزيز صفوف جيشه فى كانييس التابعة لبسطة، حيث قضى بها عدة أيام، وبعد تزوده بالمؤن وأسلحة المدفعية والذخائر من أجل الذهاب إلى نهر المنصورة -بعد أن علم أن دوق سيسا قد غادر غرناطة برفقة الجيش الآخر-، انطلق من ذلك المعسكر فى ثمانية آلاف من المشاة وخمسمائة فارس. كانت أول محطة له هى فوين كالينتى[١٣]، وبمجرد وصوله -الذى كان فى وقت العشية- أمر تيّو غونثاليث دى أغيلار أن يتوجه مع الفرسان التابعين له لتفقد سيرون، من بعض الروابى الكائنة على الناحية الأخرى من النهر فى مقابل الكرمات، وألا يبرحها إلى أن يحتل الجيش موقعه. أراد المسلمون القيام بما فعلوه فى المرة الأولى، لكن إبان اكتشافهم لوجود الفرسان، خرجوا هربًا إلى الجبل من أجل انتظار وصول النجدة ومعاودة الهجوم على رجالنا. لكن لدى رؤيتهم لعدم تقدم أحد لاحتلال البلدة، رجعوا فى تلك الليلة للتحصن بداخلها.

فى صبيحة اليوم التالى تحرك جيشنا فى صفوف منتظمة إلى أسفل مجرى النهر، وقد ترأس مشاة الطليعة القائد أنطونيو مورينو برفقة وحدات الجيش الإسبانى[١٤]

---

(١٣) معناها العين الدافئة أو الساخنة. (المترجمة)

(١٤) يختلف المؤرخون فى استخدام مصطلحات معينة، فكلمة "الإسبانى" هنا يفهم منها بشكل غير مباشر أن الموريسكيين ليسوا إسبانًا. هناك مؤرخون آخرون يؤكدون على أن الحرب قامت بين أبناء وطن واحد. (المراجع)

التابعة له، بينما تقدمهم الفرسان. حينما أدرك الأعداء أنه يتجه عامداً لفرض حصار عليهم، لم يأمنوا على أنفسهم فى البلدة أو القلعة، فأضرموا فيها النيران ليلاً ، ثم تركوها تشتعل، وعاودوا صعود الجبل على النسق الذى اتبعوه أول مرة. لمّا شاهد السيد خوان دى أوستريا القلعة تحترق، وفطن إلى أن المسلمين قد هجروها، أصدر أوامره إلى تيّو غونثاليث دى أغيلار لكى يتوجه لشغل المعبر ذاته الذى كان قد احتله فرانثيسكو دى مندوثا. كما أمر السيد غارثيا مانريكى أن يبسط سيطرته على المنطقة المرتفعة من الجبل، التى تعلو البلدة من ناحية تيخولا، برفقة ألف وخمسمائة من حملة البنادق؛ حيث كانت تلك هى المعابر التى يمكن للمسلمين الدخول من خلالها بإمدادات الإغاثة. كان ما يربو على سبعة آلاف مسلم قد احتشدوا فى بورتشينا -التى حضر إليها إيرناندو الحبقى-، لتلبية الإشارات النارية التى بات أهالى سيرون يرسلونها على مدار الليل بأسره. وفى الوقت الذى كانت قواتنا تسير فيه صوب البلدة، بدأوا يظهرون لهم فى أثناء مجيئهم إلى أعلى النهر بسرياتهم وأعلامهم المرفوعة، وهم يدقون طبولهم ويعزفون ألحانهم، على هيئة التقديم للمعركة.

بادر السيد خوان دى أوستريا بإرسال السيد مارتين دى أبيلا لاستطلاع قواتهم مع الرماحين المائة التابعين لشريش الفرنتيرة، فقام بتفقدهم، وأبلغه بأن أعدادهم ضخمة، وأنهم يبدون عازمين على القتال. حينئذ أمر السيد خوان بتنظيم صفوفه، وحث القادة والجنود على الاستبسال؛ ثم ترجل عن صهوة فرسه، وتمركز فى الطليعة أمام فرقة المشاة. كان الحبقى قد وضع فى طليعة جيشه ثمانين فارساً، ثم أتبعهم بفرقة من المشاة قوامها خمسة وعشرين جندياً فى الصف الواحد؛ وكانت القوات قد اصطفت فى نظام محكم وكأن أفرادها من ذوى الخبرة الواسعة. كان هناك ذراعان حران من الرماة[١٥] يتقدمان صوب سلاح الفرسان التابع لنا وهما يطلقان نيران بنادقهما، وذلك فى محاولة لاستثارة جنودنا وحملهما على شن هجوم غير منظم؛ وهو ما كان تيّو دى أغيلار

(١٥) من الموريسكيين. (المراجع)

سيقدم عليه بالفعل لو سمح له السيد خوان دى أوستريا فى القيام بذلك، لكن هذا الأخير أمره بالبقاء فى موضعه. قام السيد خوان بإبعاد الجانب الأيسر من جنود المقدمة، لكى يتمكن سلاح المدفعية من قصف الأعداء، وهو ما كان كافيًا لإقصائهم من الطريق الذى كانوا يشغلونه ودفعهم إلى العودة إلى الجبل باتجاه الموضع الذى كان يوجد به السيد غارثيا مانريكى؛ فحملوا عليه فى ثورة عارمة، حتى أن اليأس بدأ يدب فى نفوس جنودنا، وبادر الكثيرون منهم بالفرار. كانت قواتنا ستفنى عن آخرها، لولا ما قام به السيد خوان دى أوستريا لدى رؤيته لالتفاف العدو من خلفهم، حيث أرسل لنجدتهم ألفين من حملة البنادق؛ وقد تمكن أولئك من حسم المعركة لصالحنا، حينما شنوا هجومًا عنيفًا على الأعداء الذين صمدوا فى مكانهم لما يزيد عن الساعة.

فى تلك الآونة أصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره إلى تيّو غونثاليث دى أغيلار لكى يصعد إلى أعلى الجبل مع مائة من الرماحين، على أن يصحبه اثنان من المرشدين ليدلاه على الطريق؛ لأن تضاريسه كانت بالغة الوعورة، حتى أنها كانت تبدو بالكاد مواتية لكى تطأها الخيول. استغرق القائد ما يزيد على نصف الساعة فى الصعود إلى الموضع الذى كان رجالنا يحاربون فيه، وعندما بلغه لم يكن قد بقى بحوزته سوى أربعين فارسًا من لوائه، لأن الباقين لم يقدروا على اتباعه. تزامن ذلك مع مواجهة السيد غارثيا مانريكى للأعداء، وشروعه فى زحزحتهم عن مكانهم بمساعدة قوات الإغاثة، فأمر القائد أغيلار بنفخ الأبواق، وبادر بالانقضاض عليهم. كانت الفوضى التى عمت جموع المسلمين عارمة، لدى مشاهدتهم للخيول فى بقعة كانوا لا يتصورون أن تتمكن من اعتلائها، مما أفقدهم الحماسة، وجعلهم يفرون هربًا. قام رجالنا بملاحقتهم، فقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم، كما ألقوا القبض على البعض، واستولوا على سبعة من ألويتهم؛ أما الحبقى، فقد خلّف وراءه فرسه قتيلاً، وفر هربًا على الأقدام.

فى أعقاب إحراز ذلك الانتصار، باتت البلدة والقلعة فى قبضتنا، حيث أقام جيشنا فى بعض الكرمات المتاخمة للنهر، كما صدرت الأوامر إلى الجنود المهدين للطريق لكى يدفنوا جثث المسيحيين القتلى، التى كانت لا تزال ملقاة على الأرض منذ

الهزيمة التى منينا بها من قبــل. مكث السـيد خوان دى أوستريا هنــاك لعدة أيام، لأن الزاد الضرورى لمواصلة التقدم كان قد أوشك على النفاد؛ وأمرنى بالذهاب إلى مـدينتى أبدة وبيـاسـة، والبقـا ع الداخلة فى نطاق كـاثورلا، من أجل إمـداد الجـيش بالمؤونة(١٦)، وهو ما قمت به. عندما حان الوقت انطلق الجيش صوب تيخولا، بعد أن خلّف القائد أنطونيو سيدينيو Antonio Sedeño برفقة أربعة من فرق المشاة وكتيبة من الفرسان كمعقل فى سيرون، من أجل تأمين مواكب المؤن. كما ظل كريستوبال كاريّو Cristóbal Carrillo –وصيف ماركيز بيينا– فى القلعة مع مـائتى جندى كان الماركيز قد أرسلهم للاضطلاع بتلك المهمة. لنذهـب الآن لتناول ما كـان دوق سيسا بصدده فى ذلك الوقت.

(١٦) كانت وظيفة مارمول أثناء الحرب تتمثل فى إمداد الجيش بالمؤن، وإن كنا رأيناه يقوم بمهام عسكرية خلال تلك الحرب. (المراجع)

الفصل الثانى عشر

يتناول الكيفية التى توجه بها دوق سيسا برفقة جيشه إلى أورخيبا، وبعض المناوشات التى دارت بينه وبين ابن عبو أثناء إقامته فى ذلك المعسكر.

مكث دوق سيسا فى معسكره الأول طوال ثلاثين يومًا بانتظار الرجال والأسلحة والذخائر التى بُعِثَت إليه من غرناطة، وقد بلغ من شدته أنه بات لزامًا أن يتخذ من: المورِّد العام، والأب بدرو لوبيث دى ميسا، والمأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى، معاونين له. لمّا باتت الأمور كلها على أهبة الاستعداد، وقام جلالة الملك بإصدار أوامره بالإسراع فى تلك المسألة نظرًا لوجود السيد خوان دى أوستريا بالفعل فى نهر المنصورة؛ كما أن أى تأخير كان سينجم عنه ضرر بالغ -خاصةً وأن الرجال أخذوا يمرضون بينما يجرى استهلاك المؤن-؛ توجه السيد بدرو دى ديثا لزيارة دوق سيسا، وطلب منه التعجيل بالانطلاق. وفى اليوم التاسع من شهر مارس، تحرك الدوق مع مراجع الحسابات فرانثيسكو غوتيّريث دى كوييار، وكان يرافقه الجيش بأكمله الذى كان يضم: عشرة آلاف من المشاة، وخمسمائة من الفرسان، واثنتى عشرة قطعة من أسلحة مدفعية الميدان، والكثير من الفرسان القائمين عليها من أندلوثيا وغرناطة -كان بعضهم قد كُلِفَ بتلك المهمة، بينما صاحبهم البعض الآخر من تلقاء نفسه. قضى الجيش ليلته تلك فى بيثنار، حيث وصلت مؤخرة الجيش فى وقت متأخر للغاية، بداعى كثرة الأمتعة وسوء الطريق.

مكث الجيش فى ذلك الموضع على مدار يومين، وفى تلك الأثناء تم اكتشاف وجود بعض ألوية تابعة للمسلمين، إلا أن رغبتها فى المناوشة والمماطلة كانت تفوق عزمها

على القتال. لأنه إزاء مبادرة رجالنا إياها بالهجوم، تراجع الجنود وتوجهوا للاحتماء بقلعة لانخارون، وهى قلعة أسوارها ضعيفة، إلا أن موقعها يتميز بالتحصين فى حال الاشتباك بالأيدى. حينما ارتأى البعض أن يشن الجيش هجوماً على القلعة، لم يوافق الدوق على ذلك قائلاً إن المسلمين ليس لديهم ماء أو زاد فى الداخل، وإنه لابد لهم من مغادرتها خلال تلك الليلة، ليدعوا الممر مهجوراً وشاغراً أمام رجالنا، وهذا هو ما يسعى إليه؛ وقد تحقق بالفعل. فى اليوم التالى، الموافق الثانى عشر من شهر مارس، مضى جيشنا إلى لانخارون، وقد أبدى المسلمون رغبتهم فى شن هجوم عليهم، بيد أن السيد مارتين دى باديّا انقض عليهم برفقة فرسان الطليعة، وطاردهم حتى موضع كانيار، ولقنهم درساً لا ينسى حتى أنهم لم يعد لهم ظهور فيما بعد. عرف رجالنا -عن طريق أحد المسلمين الذين تم إلقاء القبض عليهم- كيف عهد ابن عبو بقلعة لانخارون إلى الرنديدى من أجل الحفاظ عليها بمساعدة أربعمائة من المسلمين. لكن المسلم[١٧] لم يجرؤ على المكوث بها، بل إن من بداخلها غادروها هاربين إبان رؤيتهم لقدوم قوات طليعتنا، وأخذوا يصيحون فى وجوه المسيحيين من الجانب الآخر من النهر.

لم يتسن لمؤخرة الجيش بلوغ لانخارون خلال تلك الليلة، كما ظل الجيش فى ذلك المأوى ليوم كامل فى انتظار موكب المؤن القادم من الساقية، ليبدأ مسيرته باتجاه أورخيبا فى يوم الرابع عشر من شهر مارس. كان فرانثيسكو غوتيرّيث دى كوبيار قد غادر ذلك المعسكر، لكى يحيط جلالة الملك علماً بالحالة التى وصلت إليها شئون الحرب، وعاد فيما بعد إلى غرناطة حاملاً الأوامر حول ما يتعين القيام به، وحضر انعقاد المجلس مع سيادة الرئيس إلى أن تم إخضاع الأراضى بأسرها. كان الدوق قد أحسن تنظيم صفوف جيشه، وفقًا لتضاريس الأرض التى سوف يسلكها، لأنه كانت هناك صعوبة فى أن تطأها القوات نظراً لوعورتها. كانت فرق المشاة تنتشر فى صفوف يتكون كل منها من أحد عشر جندياً، لكى يسهل تشكيلهم فى عجالة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

(١٧) فى أحيان كثيرة يستخدم المؤلف المفرد للدلالة على الجمع. (المراجع)

كما احتلت أذرع حاملى البنادق القمم والممرات الخطيرة على كلا الجانبين، أما مركبات المهمات فقد تم تجميعها وقصرها فى موضع واحد، حيث شغل حملة البنادق الأجناب، بينما وضع سلاح الفرسان فى مكان يتيح له على الدوام الخروج لشن هجماته دون الإخلال بالصفوف. وقد اصطفت كتائب الريفيين البواسل فى المقدمة لاستكشاف الأرض برفقة نفر من الفرسان.

إبان بلوغ الممر الذى كنا نعتقد فى وجود ضرب من المقاومة عنده، ظهر الرنديدى والقادة الآخرون للعيان، وكانوا قد احتلوا قمم الجبال، ومعهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مسلم. وقد جاءوا بإمارات تشير إلى رغبتهم فى الدفاع عن المعبر، وشرعوا فى القيام بأعمال وقحة، وشن بعض الهجمات الحماسية -وإن كانت ضعيفة الأثر. أمر الدوق بشن غارة ضخمة عليهم، فانقضت عليهم القوات بحيث لم يفلتوهم، وبادروا بالهرب دون توقف حتى توغلوا فى الجبال، بعد أن منيوا بخسائر ولم يحدثوا إلا أثرًا ضئيلاً، كما خلّفوا وراءهم بعض الأسلحة، وكان من بينها بندقية بديعة تعد الأروع بين ما شوهد فى تلك الأرجاء، لأنها كانت تطلق رصاصة تزن أوقية وربع. فى أعقاب إخلاء المعبر، توجه جيشنا ليعسكر فى البسيط التابعة لأورخيبا، ومكث بها ما يزيد على عشرين يومًا، لإقامة حصن يمكن أن نترك به حامية من ألف رجل، بغرض تأمين دوريات الإمدادات.

فى تلك الأثناء تمكن ابن عبو من إزعاج المعسكر عدة مرات، حيث أرسل أربعمائة من الجنود المسلحين بالبنادق فى يوم التاسع عشر من شهر مارس، فى محاولة لإلقاء القبض على أحد المسيحيين واستقاء الأخبار منه. وقد حضر أولئك فى توقيت كان سيمكنهم من إحداث بعض الأثر، لولا توقع دوق سيسا للأمر قبل حدوثه، حيث بادر بإرسال مائة فارس ومائتين من حملة البنادق، فاشتبكوا معهم لفترة ليست بالقصيرة وتغلبوا عليهم. قتل جنودنا سبعة عشر مسلمًا، واستولوا منهم على إحدى الرايات؛ كما قاموا بأسر اثنين من أهالى البشرات، وعرفوا منهما أعداد الرجال المرافقين لابن عبو فى بوكيّرة، وكيف أنه ينوى القتال عند ذلك المعبر الذى قام بتحصينه. بعد مرور

يومين على تلك الواقعة، أرسل ابن عبو ألفى رجل؛ وفى أثناء حضور دوق سيسا للقداس، لرغبته فى تناول القربان المقدس، وبينما كان راكعًا على ركبتيه أمام القسيس مقيم الشعائر، ظهر ثلاثمائة مسلم من حملة البنادق على الناحية الأخرى من النهر رافعين رايةً بيضاء، ومصطفين فى نظام محكم وكأنهم جنود محنكين.

عندما دقت الطبول إيذانًا بحشد القوات وإشهار الأسلحة، وأخذ الجنود يتجمعون تحت الألوية فى صخب كبير بعد أن شهدوا وصول الأعداء على مقربة من معسكرهم، قام الدوق -الذى تنامى إلى علمه ما كان من أمر القسيس المضطرب- بمخاطبته فى سكون قائلاً له أن يتمالك نفسه ويستكمل شعائر القداس من دون قلق؛ وفى أعقاب تناوله للقربان المقدس فى ورع شديد، بادر بالخروج لتنظيم صفوف قواته. أمر الدوق السيد خورخى موريخون Jorge Morejón -أحد أهالى أنتيقيرة- أن يتوجه للالتفاف خلف ظهور الأعداء مع من فى عهدته من الفرسان، بالإضافة إلى بعض جنود المؤخرة من حملة البنادق. وقد تصدى لهم هؤلاء، وتمركزوا أعلى ربوة صغيرة، ثم شرعوا فى الاشتباك مع رجالنا، فكانوا يخرجون فى جماعات متتالية مكونة من عشرة جنود فى نظام محكم للغاية، كما لو كانوا جنودًا نظاميين فى الميليشيات المقاتلة. وقد تمكنوا على هذا النسق من إقلاق جيشنا، وحمله على إشهار السلاح والتأهب حتى الساعة الرابعة مساءً. عندئذ، وبعد أن قاموا بتحركات تظهر نيتهم فى التراجع إلى الجبل الكائن فى المنطقة الجنوبية، أطلت الرايات مع حشود المقاتلين عند بوكيّرة. بيد أنه بحلول ذلك الوقت كان دوق سيسا قد توقع مخطط الأعداء فى لفت الأنظار إلى ناحية، من أجل الانقضاض من ناحية أخرى؛ فبقى فى المواجهة، وأمر السيد خورخى موريخون بالتراجع، بينما مكث هو مع قواته المصطفة فى انتظار نزول الأعداء.

فطن الجميع فيما بعد إلى أن المسلمين لم يكونوا قد حضروا من أجل القتال، وأن ذلك العرض الذى قدموه كان يهدف إلى إثارة القلق فى صفوف جيشنا، والحيلولة دون إدراك مدى الضعف الموجود فى جانبهم. ظل هؤلاء وأولئك شاهرين أسلحتهم على هذا النحو. وقد أشعل المسلمون كميات كبيرة من النيران فى سائر أرجاء الروابى المحيطة،

وباتوا يطلقون صيحاتهم القتالية، ويدقون الطبول وينفخون الأبواق حتى انتصاف الليل، ثم تراجعوا إلى بوكيّرة بحلول الساعة الرابعة فجراً. كان دوق سيسا شاهراً أسلحته طوال الوقت إلى أن عرف بتراجع الأعداء، وعندها أصدر أوامره بعودة الألوية إلى ثكناتها. لنترك الآن دوق سيسا، الذى سنرجع إليه لاحقًا لذكر بعض الأمور التى وقعت خلال ذلك المعسكر، وننتقل لتناول الأمر الذى صدر فى تلك الآونة بإجلاء الموريسكيين المسالمين من غوطة غرناطة.

الفصل الثالث عشر

يتناول الكيفية التى تم بها إجلاء الموريسكيين المسالمين من بقاع غوطة غرناطة، واقتيادهم إلى المواضع الداخلية، والنسق الذى تم اتباعه للقيام بذلك الأمر.

كان حرمان الثوار من مساندة الموريسكيين المسالمين الباقين فى مملكة غرناطة هو أكثر الأمور موائمة من أجل إخضاعهم إلى الحاجة، وإيصالهم إلى حالة العوز الشديد؛ لأن إيداع الموريسكيين فى بقاع داخلية من المملكة، كان يحول تمامًا بينهم وبين كل السبل المريحة التى تتيح لهم إعادة تشكيل صفوفهم وتعزيزها بالرجال، كما أنها تقطع الطريق على وجه الخصوص أمام ما كانوا يمدوهم به فى الخفاء من تنبيهات وأسلحة ومؤن. كان هذا هو الرأى الذى طالما اعتنقه الأب ألونسو نونيث دى بوهوركيس، وقد توصل أعضاء المجلس بالفعل إلى مشاركته الرأى، وعلى وجه الخصوص دوق سيسا والسيد بدرو دى ديثا. بعد أن دار العديد من المناقشات فى هذا الصدد، وتم طرحه على جلالة الملك، تقرر القيام بذلك الإجراء.

راودت جلالة الملك رغبة عارمة فى تولى السيد خوان دى أوستريا مسألة إجلاء موريسكيى وادى آش، وبسطة، والبقاع التى تدخل فى إطارها، قبيل دخوله إلى نهر المنصورة. وكان هذا هو ما كتبه جلالته فى الرسالة التى بعث بها فى الرابع والعشرين من فبراير، لكى يجرى تجميعهم بأقل قدر ممكن من القلاقل، وإفهامهم أن ذلك الإجراء يتخذ من أجل مصلحتهم، والسماح لهم باصطحاب نسائهم وبنيهم وممتلكاتهم المنقولة. بيد أن السيد خوان لم يقم بذلك لأنه كان موجودًا بالفعل

فى معسكر سيرون إبان تسلمه لتلك الرسالة، حيث تراءى له أنه ليس من المناسب العودة إلى الوراء أو تقسيم الجيش؛ وإنه سيضحى بالإمكـان الاضطلاع بتلك المهمة فى ظروف أفضل، حينما تجىء الألوية التى تضم ألفين من جنــود المشـاة التابعين لقشتالة ولمملكة طليطلة، والذين حضـــروا تحت قيادة السيد خوان نينيو دى غيبارا Juan Niño de Guevara. حيث تتوقف القوات فى أحد الأيام بتلك المدن، لاستعراض الأهالى، لأنه كان من الضرورى أن يتم حبسهم فى الكنائس فى اليوم ذاته -على النحو الذى اتبع مع أهالى البيّازين فى غرناطة- وذلك للحيلولة دون تمكنهم من الفرار إلى الجبال؛ وهو أمر لن يتوانى أحد منهم عن القيام به إذا ما أتيحت لهم الفرصة، نظراً للأسى الشديد الذى كانوا يشعـرون به لإرغامهم على هجر ديارهم؛ وقد كان هذا هو ما كتبه السيد خوان فى رسالته التى بعث بها إلى جلالة الملك.

فى أعقاب ذلك، كتب جلالة الملك خطاباً إلى السيـد خوان دى أوستريا فى الخامس من شهر مارس، مبدياً استحسانه لما ذكره السيد خوان. كما أخبره جلالته أن المجلس الملكى قد اتخذ قراراً -بعدما صدر الأمر الأول الذى أرسل إليه- بعدم الإبقاء على أى موريسكى مسالم فى مملكة غرناطة بأسرها، وأنه يرى أن يكلف السيد بدرو دى ديثا بتلك المسألة، ويزوده بالرجال اللازمين للاضطلاع بها، لكونه أقل انشغالاً منه ومن دوق سيسا. استمر السيد خوان دى أوستريا فى إبداء الصعوبات الشديدة التى تقف فى وجه ذلك الأمر، نظراً لقلة عدد الرجال المتوافرين خارج صفوف الجيشين؛ وقال إنه لدى إسناد تطبيق القرار إلى الرئيس، سوف يتعرض للصعوبات ذاتها التى يواجهها هو؛ وإنه لا يمكن بحال من الأحوال استقطاع جزء من الرجال الموجودين فى حوزته، وإنه لا يمكن الإقدام على شأن عسير للغاية كإجلاء الموريسكيين من ديارهم من دون اللجوء إلى القوة العسكرية. كما أضاف أنه من الأجدى الانتظار إلى حين قدوم الرجال من قشتالة -على النسق الذى ذكره-، وإلى أن يحقق النتائج المرجوة من المهمة التى يتولاها -بوصفه رجلاً يميل إلى القيام بكل الأمور بذاته. بيد أن جلالة الملك -العازم على أنه من الأحرى عدم التأجيل- أخبر السيد خوان فى رسالة أخرى صادرة فى الحادى والعشرين من مارس، أنه قد عهد إلى الرئيس بتنفيذ تلك

المهمة بمساعدة أهالى المدن، والرجال التابعين لسادة الإقطاع الموجودين فى الأماكن القريبة من غرناطة، وذلك لتفادى تقسيم الجيش؛ كما أنه قد تراءى لجلالته عدم الانتظار إلى حين قدوم الرجال من قشتالة، من أجل الحيلولة دون فوات الفرصة.

صدرت الأوامر إلى السيد خوان عبر تلك الرسالة لكى يبعث بها إلى سيادة الرئيس، وينبهه إلى ما تم إقراره فى هذا الصدد. كانت هناك بعض الشكوك حول بقاء بعض الموريسكيين البارزين من نواب مجالس البلدية، ممن لديهم امتيازات خاصة متعلقة بحيازة الأسلحة، وآخرين ممن لم يحملوا السلاح، وقاموا بتصرفات رائعة تفوق العادة عقب اندلاع الثورة، أو إذا كان قرار الإجلاء شأنًا عامًا لا يستبقى أحدًا. فأبدى جلالة الملك -بوصفه أميرًا عادلاً- رغبته فى الإبقاء على الامتيازات والأفضلية لمن يستحقونها؛ وهكذا صدرت الأوامر تبعًا لذلك. فى أعقاب وصول ذلك الأمر إلى السيد بدرو دى ديثا، أدخل الإجراءات المتعلقة بإخلاء قرى غوطة غرناطة محل التنفيذ. فعين مشرفين على الأمر من نواب مجالس البلدية والرجال البارزين فى المدينة، لكى يتوجهوا لحبسهم فى الكنائس؛ وأن يخبروهم كيف أن جلالة الملك -حرصًا منه على مصلحتهم- يود إبعادهم عن الخطر المحدق بهم، وتوطينهم فى قرى داخلية يعيشون فيها آمنين، إلى حين الانتهاء من تلك الأمور. كما أمر بأن يتركوهم يبيعون كل ممتلكاتهم المنقولة، وألا يسمحوا بتعريضهم لأى نوع من المضايقات. ومن أجل أن يتسنى لهم تصريف الغلال والماشية التى لا يمكنهم حملها معهم على نحو أفضل، أمر الرئيس المورد العام بأن يأخذها كمؤن للمحاربين، وأن يدفع إليهم ثمن القمح والشعير فى التو من نقود الضرائب، وأن يمنحهم مقابلاً عادلاً ومنصفًا للماشية.

أسفرت تلك التدابير عن طمأنة الموريسكيين، وفى يوم أحد السعف[(١٨)] -الموافق التاسع عشر من شهر مارس لعام ٧٠- تم إيداعهم فى الكنائس فى خضم

---

(١٨) هو يوم الأحد الأخير فى الصوم الكبير الذى يتعبد به المسيحيون على مدار أربعين يومًا، ويعد بداية لأسبوع الآلام. انظر، Diccionario de la lengua española, Real Academia Española, vigésima primera edición, Madrid 1992, tomo I, Pág. 773. (المترجمة)

مشاعر تحوى من الهدوء مقدار ما تحويه من الحسرة، واقتيدوا إلى المشفى الملكى فى غرناطة. وقام خوان سانشيث دى أوبريغون Juan Sánchez de Obregón -أحد الوجهاء الأربعة والعشرين لتلك المدينة- بإجلاء موريسكيى أوتورا مع الرجال الذين كانوا يقطنون هناك. أما موريسكيو أوخيخار -العليا والسفلى- فقد تولى السيد بدرو دى بارغاس Pedro de Vargas إخراجهم بمساعدة الرجال المقيمين فى القرى ذاتها، ورجال آخرين من المدينة؛ بينما تولى السيد مارتين دى لوايسا Martín de Loaysa تجميع موريسكيى تشوريّانا برفقة فرقة من المشاة التابعين لبيّا نوييا دى لا سيرينا Villanueva de la Serena. كان هذا هو الفريق الأول، أما الفريق الثانى الذى اضطلع بالمهمة ذاتها فكان يضم كلاً من: بدرو نونيو، الذى توجه إلى البلوط برفقة قوات مشاة تابعة للمدينة، وألونسو لوبيث دى أوبريغون Alonso López de Obregón، الذى اصطحب رجالاً من الأخوية والدائرة اللتين يتبعهما، وتوجه إلى أرميًا. كما كان هناك خوان مورينو دى ليون Juan Moreno de León الذى قصد بيليثينا Belícena، والسيد دييغو ثاباتا Diego Zapata الذى توجه إلى الطرفى، أما بينوس Pinós فقد ذهب إليها لويس دى بيخار Luis de Béjar -كبير حجاب غرناطة- برفقة رجال كانوا بالمدينة، وكان قد منح بعضهم إلى كل من تقدم ذكرهم، بالإضافة إلى من أحضرهم السيد دييغو ثاباتا معه. فيما يتعلق بالفريق الثالث، فقد ضم القائد السيد أنطونيو دى تيخيدا Antonio de Tejeda -أحد أهالى شلمنقة Salamanca- الذى اتجه إلى الهندين مع فرقة المشاة التابعة له، والسيدين بدرو وميغيل دى ليون، اللذين قصدا غابيا لا غراندى (الكبرى) Gabia la Grande مع الجنود التابعين لميدينا ديل كامبو.

فى أعقاب القيام بذلك، تم إعلان منشور رسمى يدعو سائر الموريسكيين الذين بقوا فى غرناطة وباقى القرى والضياع التى تدخل فى نطاقها أن يغادروها وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام. تجمع موريسكيو الفريق الأول فى تشوريّانا، وتوجهوا فى اليوم التالى إلى سانتا فى برفقة دوريات الحراسة، ومنها إلى إيّورا وقلعة يحصب فى صحبة دورية حراسة أخرى من الجنود. وقد أبقوا عليهم فى تلك المدينة لمدة يوم، من أجل انتظار مجىء موريسكيى الفريق الثانى، الذين كانوا قد حشدوا صفوفهم فى الطرفى،

ثم غادروها صوب موكلين مرورًا ببيتوس، حيث استاقوا موريسكيي بلدة موكلين وضياعها، ثم عادت الدورية لاقتيادهم إلى قلعة يحصب، التى اجتمعوا فيها مع الآخرين، وتوجهوا معًا إلى البقاع التالية: ألكاوديتى، وبرج السيد خيمينو (تورّى دى دون خيمينو) Torre de don Jimeno، ومينخيبار Mengíbar، وليناريس Linares، ونزل أركّيوس Arquillos، وسانتيستيبان ديل بويرتو Santisteban del Puerto، وكاستيّار، وبيّا مانريكى Villamanrique، وبالديبينياس Valdepeñas، وألماغرو Almagro، والمدينة الملكية Ciudad Real، حيث سلموهم إلى الجهات القضائية للنظر فى شأنهم، وقد أمسوا من قاطنى تلك البقاع.

أما الفريق الأخير الذى توجه إلى الهندين وغابيا، فقد ذهب فى اليوم التالى إلى كولوميرا فى رفقة دورية حراسة ، حيث اصطحبهم أهالى تلك البلدة إلى كامبيو دى أريناس Campillo de Arenas، ومنها سلموهم يدًا بيد إلى كل من: جيّان، وبياسة، وبرج بيروخيل Perogil، وبيّا كاريّو Villacarrillo، وبرج خوان أباد la Torre de Juan Abad، حيث أسلموهم إلى حاكم جبهة مونتييل من أجل أن يتولى توزيعهم على تلك الأماكن. بلغت تلك الأنباء جلالة الملك فى أثناء وجوده فى قرطبة، وقد سر جلالته كثيرًا للسهولة التى تم بها تطبيق الأمر، لأن القادة كانوا قد وضعوا أمامه آلاف المعوقات. كما امتدح جلالته الهمة العالية والعزم اللذين اتسم بهما تنفيذ تلك المهمة. لنترك الآن مسألة طرد باقى الموريسكيين المحاربين -والتى سنتناولها حينما يرد ذكرها-، ولنتوجه إلى السيد خوان دى أوستريا، الذى كان ينتظرنا منذ فترة من الزمن فى نهر المنصورة.

الفصل الرابع عشر

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على تيخولا، والحوارات التى دارت بين القائد فرانثيسكو دى مولينا والسيد فرانثيسكو دى كوردوبا والحبقى، من أجل إقناعه بالاستسلام.

انطلق السيد خوان دى أوستريا من معسكر سيرون، الذى قضى به عدة أيام من أجل اتخاذ التدابير اللازمة لإمدادات المؤن، فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس، وتوجه فى اليوم ذاته على رأس جيشه إلى تيخولا. تقع تلك البلدة على مسافة فرسخ من سيرون إذا ما سرنا فى اتجاه منبع النهر فى الجهة ذاتها. وكان المسلمون قد شيدوها قديماً على تل يتسم بالوعورة والانحدار، ومحاط من جميع الاتجاهات بصخور شديدة الارتفاع لا تفضى سوى إلى مدخل واحد فقط من ناحية الجبل، ويصعب للغاية بلوغه. أما قاطنوها، فقد هبطوا للعيش عند سفح التل، وعلى مقربة من البساتين والنهر، لأن المساكن القديمة كانت بعيدة للغاية عن متناول أيديهم. وقد قام أولئك، فى خضم الأوضاع التى تلت اندلاع الثورة، بترميم الأسوار المهدمة، واحتشدوا فى البقاع المرتفعة مع نسائهم وبنيهم؛ كما تحصنوا بأفضل السبل المتاحة لهم، حينما أدركوا أن السيد خوان دى أوستريا سوف يشن حملة عليهم، وأودعوا بالداخل كاراكاش برفقة خمسين من الأتراك للتأمين. وانطلاقاً من ثقتهم فى حصانة الموقع ووفرة المؤن، ظنوا أنهم سيتصدون بالداخل لأى هجوم عنيف.

عسكر جيشنا فى الأماكن المنخفضة والبساتين، وبناء على رغبة السيد خوان دى أوستريا فى محاصرة الأعداء وقطع الإمدادات عنهم، أمر السيد بدرو دى بادياً أن

يتوجه مع وحدات الجيش الإسبانى التابعة له لاحتلال الجبل الكائن فى المنطقة المطلة على بورتشينا، والذى يمكن أن تأتيهم النجدة عبره؛ وأن يبسط ألفًا من حملة البنادق فى وحدات الجيش التابعة للسيد لوبى دى فيغيروا سيطرتهم على جبل آخر يقع باتجاه سيرون، حيث يتعين نصب أسلحة المدفعية. كان هناك ألف من المقاتلين المسلمين بداخل الحصن، من بينهم ثلاثمائة من الجنود المسلحين بالبنادق؛ أما البقية فكانت بحوزتهم أسلحة متهالكة لا تمثل أهمية كبرى، وقد أراد هؤلاء الخروج فى بعض الأحايين للاشتباك مع المسيحيين، وكانوا دائمًا ما يتراجعون بعد أن يمنوا بخسائر. أولى السيد خوان دى أوستريا عنايته إلى نصب أسلحة المدفعية لتحيط بهم من ناحيتين، ولم يكن بالإمكان البدء فى قصفهم قبيل يوم الحادى والعشرين من مارس، نظرًا للصعوبة البالغة التى واجهت رفع المدفعية الثقيلة إلى أعلى، وقد بلغت الصعوبة حداً تعين معه تفكيك أربع قطع مدفعية من البرونز عن قاعداتها، وكانت من النوعية التى يطلق عليها ابتكارات حديثة، حيث تزن الواحدة منها ثمانية عشر قنطاراً[١٩]، وذلك بغية رفعها فى الهواء بواسطة آلة جديدة. حيث يتم وضع جذعى شجرتين سميكتين وضخمتين للغاية على إحدى الصخور قائمة الانحدار، وتُوضَع أعلاهما قطع المدفعية، حتى يتم رفعها إلى الأعلى باستخدام البكرات والحبال المبرومة -يا للمدى الذى يمكن لعقل وقوة الرجال بلوغه!. كما تم اللجوء إلى الأسلوب ذاته لرفع عربات المدافع، والعجلات، والألواح السميكة، والأخشاب اللازمة لصنع المنصة.

فى خضم تلك الأحداث طلب القائد فرانثيسكو دى مولينا الإذن من السيد خوان دى أوستريا من أجل كتابة رسالة إلى الحبقى ينصحه فيها بالاستسلام، لأنه كان يرى أنه سيأخذ بمشورته. وكان على معرفة بالحبقى قائد المسلمين، وأقام من قبل فى منزله ببلدة الكودية فى أثناء توليه منصب العريف على محاربى وادى آش؛ وكان الحبقى قد أسدى إليه أفضالاً كثيرةً عدة مرات قبل رحيله إلى الجبل. كان الحبقى فى تيخولا قبيل

(١٩) القنطار يعادل مائة كغم حاليًا، وكان يعادل ستة وأربعين كغم قديمًا. (المترجمة)

وصول جيشنا إليها بفترة وجيزة، ولمّا كان رجلاً لا يطيق الحصار فقد غادرها إلى بورتشينا، التى حشد بها جحافل المسلمين فى نهر المنصورة. ونظراً لأن فرانثيسكو دى مولينا كان على دراية بالعلاقة القائمة بينه وبين السيد إيرناندو دى بارَاداس، فقد أراد أن تتم تلك المسألة من خلال ذلك الأخير، لثقته فى أواصر الصداقة التى تربط بينهما.

حينما مُنِحَ فرانثيسكو الأذن الذى كان يطلبه، بادر بالكتابة إليه يبلغه أنه يسره للغاية مقابلته، من أجل تباحث عدة أمور مجدية وضرورية للغاية لصالح المسيحيين والمسلمين: وكذلك تنظيم المسألة المتعلقة بالأسرى، لأن الأتراك كانوا يشكون من أنه حينما يُلقَى القبض على بعض منهم فإنه يتم شنقهم؛ وأنه لا تُراعى معهم قوانين الحرب، بوصفهم جنوداً متطوعين وليسوا رعايا متمردين. كان هذا هو فحوى الرسالة، بيد أن المسلم -الذى كان يتميز بحسن الإدراك- فطن إلى المغزى الذى تمت مخاطبته من أجله، فأجاب بأنه سيبتعد عن بورتشينا فى اليوم التالى لمسافة تبلغ نصف فرسخ، وسوف يصطحب أربعين من الفرسان وخمسين من المشاة المسلحين بالبنادق، وأن على القائد فرانثيسكو أن يحذو حذوه ويخرج فى عدد مماثل من جانبه، وهناك سيتباحثون فى الشأن الذى ذكره. خرج فرانثيسكو دى مولينا إلى الموضع فى أربعين فارساً -كان من بينهم بعض النبلاء والقادة الذين حضروا لكى يشاهدوا الحبقى والأتراك القادمين برفقته-، وعندما ألفى المسلم ينتظره مع أربعين من الفرسان وخمسمائة من المشاة المسلحين بالبنادق، أرسل من يخبره إنه ليس من الصواب أن يأتى فى عدد من الرجال يفوق من فى حوزته، وأن عليه أن يخلّف وراءه المشاة ويتقدم إلى الأمام فى صحبة الفرسان فقط.

استحسن المسلم ذلك القول، وتقدم القائدان. كان قائدنا بمفرده، بينما حضر الحبقى مع اثنين من الأتراك على كلا الجانبين، لأنهما بوصفهما أناساً ينزعون إلى الشك، لم يكونا يثقان فى قائدهما، فرغبا فى الحضور والاستماع إلى ما يتم الاتفاق عليه. ظل الرجلان يتحدثان لبرهة من الوقت فى إطار ما تناوله فرانثيسكو دى مولينا فى رسالته،

وخلصت أقوالهما إلى أنه من المنطقى أن يتم إحسان معاملة السجناء، وأن ما خلا ذلك سيكون أمرًا ينم عن القسوة، وعليه فإن هذا هو ما ينبغى الالتزام به لأنه سيسعدهما للغاية. عندئذ أراد فرانثيسكو دى مولينا إبعاد الحبقى عن الرجلين التركيين ليخبره بالشأن الأساسى، فقال له بدافع الصداقة: "هذان الرجلان الشريفان التركيان لابد وأنهما يودان الشرب، وها قد تم إحضار بعض الأطعمة الجافة والمشروبات إلىّ؛ فلنطعمها ونشرب معًا فى جو من الحوار الودى، وهو ما سيكون مجديًا لعلنا نتخلى عن طعن بعضنا البعض بالرماح غدًا". فطن المسلم إلى الهدف الذى يرمى إليه قائدنا من وراء قوله، فقال إنه سيسعده ذلك. أمر فرانثيسكو دى مولينا أن تُجلَب إليه دابة النقل التى تحمل الأطعمة وبعض قنانى النبيذ[٢٠]، وتقدم التركيان لكى يطعما ويشربا مما فى السلال.

فى أثناء تناول الرجلين للطعام والشراب، تسنى لفرانثيسكو الابتعاد بالحبقى عنهما، وقال له الكلمات التالية: "أيها السيد إيرناندو الحبقى، أنتم تعلمون أننى لم آت إلى هنا إلا مدفوعًا بمشاعر الحب التى أشعر بها تجاهكم نظير حسن الضيافة الذى لقيته فى داركم. وأنا أنصحكم بوصفى صديقًا لكم أن ترجعوا إلى خدمة صاحب الجلالة، وأن تضعوا فى اعتباركم مدى ضيق السجن الذى يضم بين جنباته من يخدمون الطغاة إذا ما رغبوا فى الاستمرار فى طغيانهم؛ وأن من قاموا بخدمة الملكين الكاثوليكيين، وحافظوا على ولائهم لهما، أُسبِغَت عليهم النعم؛ كما أن الأفراد المنحدرين من سلالتهم هم فى الوقت الحالى من الموسرين وأصحاب المقام الرفيع. ولّما كانت الفرصة سانحة أمامكم لكى تنضموا إلى تلك الفئة، فإنه ليس من الحكمة أن تدعوها تفوتكم". أجاب المسلم على تلك الكلمات بقوله إنه يسعده للغاية تلك المشورة التى يسديها إليه لكونه صديقًا حقيقيًا، وأنه يسره الأخذ بها، بيد أن الأمر يجب أن يتم على نحو لا ينجم عنه إلحاق الضرر بأى من الأتراك أو المسلمين. فردّ فرانثيسكو دى مولينا: "هناك العديد من السبل التى يمكن أن ننتهجها لكى يتسنى لنا الوفاء بذلك.

(٢٠) من الغريب أن يشرب الأتراك الخمر، ولعله سهو من المؤلف. (المراجع)

والخدمة التي يسعكم القيام بها في الوقت الحالي هي تقديم النصح للمسلمين، من أجل أن يتركوا نهر المنصورة ويحتشدوا جميعًا في البشرات؛ ولاحقًا عندما تجتمعون سويًا فسيمسي بمقدوركم إقناعهم بالاستسلام. فأنتم ترون مدى ضآلة قدرتهم على التصدي لسطوة ملك ذي نفوذ عريض، وهو على أتم الاستعداد ليشملهم بعطفه إذا ما وضعوا أنفسهم طواعيةً بين يديه، لكونهم رعاياه وأبناء مملكته".

أجاب الحبقي بأنه فيما يتعلق بالحصون، فسوف يسعى لأن يرى جلالة الملك منه ما يدل على رغبته في الانخراط في خدمته، أما باقي الأمور فإنه سوف يتداولها مع ابن عبو ومع أقربائه وأصدقائه، على أن يمنحه الرد في غضون عشرة أيام. وهكذا ودعا بعضهما البعض دون أن يفطن الرجلان التركيان إلى فحوى ما دار بينهما -وفقًا لما أكده لنا الحبقي فيما بعد. وقد قام القائد المسلم بكتابة رسالة أخرى إلى فرانثيسكو دي مولينا يطلب فيها الالتقاء به مرة أخرى، ولمّا كان القائد فرانثيسكو منهمكًا في نصب أسلحة المدفعية، فقد بعث إليه السيد خوان دي أوستريا بالسيد فرانثيسكو دي كوردوبا ليرى ماذا يريد؛ وكان ذلك الأخير قد أتى خلال تلك الأيام إلى المعسكر بأمر من جلالة الملك، من أجل أن يحضر جلسات المجلس بدلاً من لويس كيخادا. توجه السيد فرانثيسكو لمقابلته، فأكد له المسلم الوعد الذي كان قد منحه لفرانثيسكو دي مولينا؛ كما أنه غمره سرور عامر على أثر العرض الذي قدمه إليه السيد فرانثيسكو دي كوردوبا بالنيابة عن السيد خوان دي أوستريا.

الفصل الخامس عشر

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على بلدة تيخولا، والظفر بها.

فى أعقاب عودة الحبقى إلى بورتشينا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس، أمر أن ينادى بين الناس أنه على جميع المسلمين الاحتشاد فى البشرات. وقال إنه لن يجديهم أن يحتموا بالحصون، لأن المسيحيين سيذبحونهم جميعًا على غرار ما فعلوه بأهالى غاليرا، وما سيقدمون على فعله بأهالى تيخولا، لو لم يغادروا فى الوقت المناسب قبل أن تُهدَم الأسوار على رؤوسهم. كما قام بإرسال أحد المسلمين فى تلك الليلة إلى المحاصرين، ليخبرهم بأن يخرجوا من الحصن بأكبر قدر ممكن من السرية، لأنه لن يتسنى له إغاثتهم بأى حال من الأحوال. فى تلك الآونة كانت كافة أسلحة المدفعية قد أضحت على أهبة الاستعداد لقصف المدينة، وكانت قد وردت إلينا معلومات مؤكدة حول أوضاع المحاصرين بواسطة أحد المرتدين الصقليين يدعى فيليبى Felipe -وكان مسقط رأسه فى مدينة ترابانا Trapana- ورجل تركى يدعى مامى Mami، كان قد أتى إلى معسكرنا. حيث تولى ذلك الرجل إخبارنا عن الأناس الموجودين بالداخل، وكيف أن المسلمين قد تملكهم الفزع، حتى أن الأتراك لا يستطيعون حملهم -باستخدام العصى- على التوجه ناحية الأسوار خوفًا من المدفعية. كما أنهم سعوا إلى الهرب خلال الليلة المنصرمة عندما أتى رسول الحبقى، وبما أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فإنهم ينتوون مغادرة الحصن والفرار فى أثناء الليلة القادمة عبر بوابة البلدة المفضية إلى النهر، بعد أن فقدوا الثقة فى قدوم النجدة إليهم من بورتشينا؛ على الرغم

من وجود البعض ممن لم يفقدوا الأمل بعد فى إنقاذهم. كما أن لديهم كميات وفيرة من القمح والشعير، وبعض المطاحن اليدوية التى يطحنون فيها الحبوب، وقدر ضئيل من اللحوم، ولا يتوفر لديهم أى صنف آخر من صنوف الزاد، وأنهم يشربون من ماء أحد الصهاريج قُطِعَ عليهم السبيل بحيث لم يعد بإمكانهم التزود بالماء من النهر، فكانوا يوزعون الماء بكميات صغيرة. وهناك أعداد غفيرة من النساء والأطفال، بحيث لن يكفيهم الماء لمدة يومين؛ والمسلمون يميلون إلى تسليم أنفسهم، لولا الأتراك الذين يحولون بينهم وبين ذلك. شرع رجالنا فى قصف البلدة والقلعة فى ذلك اليوم الموافق الثانى والعشرين من شهر مارس - وكان يوم الأربعاء فى أسبوع الآلام - من الصباح وحتى المساء، وذلك من ست جهات. على الرغم من أن الأسلحة القاذفة التى كانت منصوبة فى ناحية القلعة قد أحدثت أثرًا بالغًا، وكان يبدو أن قواتنا بمقدورها الدخول عبرها، فقد ارتأى السيد خوان دى أوستريا عدم القيام بذلك، نظرًا للعوائق التى عادة ما تتعرض لها الهجمات الليلية. لمَّا كانت بداية تلك الليلة مصحوبة بسحب بالغة الضخامة وظلمة وبعض الأمطار، فقد قام المسلمون -الذين أدركوا أنهم هالكون- باستغلال فرصة تلك الأجواء وغادروا البلدة من مواضع شتى؛ حيث تفرقوا هربًا عبر الأودية الصغيرة والوهاد الجبلية -كل منهم حيثما يقتاده الحظ- فأطلقوا العنان لأقدامهم لتحملهم أينما تشاء وتقودهم حيث تريد[٢١].

استشعر الرجال الذين يتولون مهام الحماية ما يحدث، وأطلقوا النفير حينما أدركوا أن المسلمين يهربون؛ فهرع الجنود إلى موضع القصف، واقتحموا البلدة من خلاله دون أن يلاقوا من يتصدى لهم، على نحو جعل المكان يمتلئ بالمسيحيين فى غضون فترة قصيرة للغاية، وكذلك بالأعداء الذين وقعوا فى قبضة نقاط الحراسة التى انتشرت فى سائر الأرجاء. وقع الكثير من القتلى، وتم أسر أعداد غفيرة من النساء،

---

(٢١) يورد بيريث دى إيتا قصة هروب الموريسكيين فى ظلمة الليل، ويتحدث عن تواطؤ مسلم ارتدى زى الحراس المسيحيين. (المراجع)

والظفر بغنائم ثمينة للغاية كان المسلمون قد جمعوها فى ذلك المكان المنيع. كان الأعداء سينالهم أضرار تفوق بكثير ما لحقهم لولا الظلمة الحالكة لتلك الليلة، ولولا تمكنهم من معرفة أسماء المسيحيين وكلمة السر الخاصة بهم، وهكذا كُتِبَ للكثير من المسلمين متحدثى اللغة الإسبانية ورفاقهم النجاة.

كانت هناك فوضى عارمة بين صفوف رجالنا، لأنهم غادروا الجبهات ومواضع المدفعية حتى يتوجهوا للسطو على البلدة. وهو ما كان سيشكل أمرًا على قدر بالغ من الأهمية بالنسبة للأعداء لو هب البعض لنجدتهم، على الرغم من أن السيد خوان دى أوستريا أصدر أوامره بتجميع أكبر عدد من الجنود الذين تسنى لهم الفرار، كما أرسل أشخاصًا إلى مواقع المدفعية بدافع اتخاذ الحيطة. لمّا كان العديد من الجنود يفرون بالغنائم، فقد بادر السيد خوان بتشكيل فرقة من أربعين فارسًا تجوب أرجاء سيرون، آمرًا إياهم ألا يسمحوا بعبور أى من الجنود. كاتب السيد خوان دى أوستريا كلاً من السيد خوان إنريكيث فى بسطة وأنطونيو سيدينيو **Antonio Sedeño** فى سيرون، لكى يلقيا القبض على كل من يتوجه إلى تلك الأرجاء ويبعثا به إليه؛ وقد اتخذ كل تلك التدابير فى سرعة فائقة خلال تلك الليلة. مع بزوغ فجر اليوم التالى صعد السيد خوان إلى البلدة، ويبدو أنها كانت منيعة للغاية، ولم نكن لنستطيع الظفر بها –فى حالة شن هجوم– من دون تكبد خسائر فادحة بين صفوف رجالنا.

أدرك جنودنا فيما بعد أن من فروا من المسلمين سلكوا وهادًا جبلية كان يستحيل على رجالنا إمكانية إعاقتهم فيها. رغمًا عن ذلك كله فقد قُتِلَ وأُسِرَ ما يربو على أربعمائة فرد، أما من هربوا فقد وصلوا إلى بورتشينا يملأهم الرعب والفزع، مما كان الداعى وراء هرب الجانب الأكبر ممن كانوا بالمدينة –كما فعل الآخرون. أما من مكثوا بها، فقد سلموا أنفسهم إلى السيد غارثيا مانريكى بغية الدخول فى رحمة جلالة الملك؛ وكان السيد خوان دى أوستريا قد بعث به برفقة سلاح الفرسان لمعرفة ما يدور هناك. دلف السيد غارثيا إلى الحصن، وجمع بداخله كافة النساء والثياب، لأنه ظن أنهن من

نصيبه لكونهن قد استسلمن إليه هو؛ بيد أن السيد خوان دى أوستريا لم يستحسن ذلك الإجراء، وأرسل السيد خيرونيمو مانريكى Jerónimo Manrique لكى يحتل الحصن مع أربع فرق من المشاة ريثما يصل الجيش، كما أمر لورينثو ديل مارمول Lorenzo del Mármol -شقيقى[٢٢]- أن يستحوذ ، باسم الملك، على كل المسلمات وجميع الممتلكات المنقولة التى كانت بداخل الحصن، من أجل أن يتولى هو تقسيمها بنفسه وهو ما حدث بالفعل.

(٢٢) هكذا نفهم أن المؤلف لديه مصدر آخر للمعلومات. (المراجع)

الفصل السادس عشر

يتناول تقدم السيد خوان دى أوستريا إلى بورتشينا.

انطلق السيد خوان دى أوستريا يصاحبه جيشه من تيخولا فى يوم السبت الموافق الخامس والعشرين من شهر مارس، وكان عشية عيد فصح القيامة المجيد، وذلك بعد أن دمر تلك البلدة وخرب زروعها. وتوجه ليعسكر فى البساتين الكائنة أسفل بورتشينا، وقد بدا له المكان منيعًا للغاية، حتى أنه سر حينما رأى أن الأعداء قد رحلوا عنها. كان قد تبقى بالداخل حوالى مائتى شخص، وكان الجزء الغالب منهم من العجزة الذين لم يقووا على الهرب. عيّن السيد خوان أربع فرق مشاة وكتيبة فرسان، من أجل حماية المكان وتأمين مواكب الإمدادات، تحت إمرة أنطونيو سيدينيو -الذى أمره بالمجىء إلى هناك من سيرون، وبعث بدلاً منه بالقائد إيرنان باثكيث دى لوايسا Hernán Vázquez de Loaysa. أصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره بتقسيم المسلمات وسائر الممتلكات المنقولة بين القادة والرجال النبلاء وذوى المكانة العالية من المحيطين بشخصه. وفى اليوم التالى بعث بالسيد فرانثيسكو دى كوردوبا فى ألفين من المشاة وبعض الفرسان إلى حصن أوريا، حيث تنامى إلى علمه أن قائد الحصن لم يرد استقبال نفر من المسلمين الذين قدموا إليه لتسليم أنفسهم، لعدم رغبته فى الإبقاء على حياتهم. بيد أن الأمر الأرجح هو أنه كان يود تعطيلهم حتى يتسنى له تنبيه بعض من أصدقائه القادة، لكى يخرجوا لانتظارهم على الطريق، ويقومون بأسرهم فى أثناء ذهابهم للاستسلام.

فطن من بالجيش فيما بعد إلى ذلك الأمر، فأصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره إلى القادة الذين كانوا مهيئين للذهاب وتفقد المكان ألا يقوموا بذلك، وإلى السيد

فرانثيسكو دى كوردوبا لكى يرى إذا ما كانت هناك حيلة أو مكيدة فى الأمر. وإذا ما أتوا لتسليم أنفسهم، فعليه أن يقبلهم، ولا يسمح بأن يلحق بهم أى أذى، لأنه ليس من الملائم أن يتم انتهاج تلك الطريقة التى تمثل عائقًا كبيرًا على ضوء الاستسلام الذى شرع الحبقى فى السعى لتحقيقه. وصل السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى أوريا، فالفى بعض المسلمين عند جادة كائنة بجوار القلعة، فبادر أولئك بتسليم أنفسهم فى خضوع تام، والاستسلام مع نسائهم وبنيهم لرحمة جلالة الملك. وعندما أراد أن يستعلم من قائد الحصن عن السبيل الذى كان ينتوى اتخاذه لإخضاعهم، وكيف لم يُعلِم السيد خوان دى اوستريا بالأمر، أبرأ نفسه من تلك التهمة بقوله إنهم هم أنفسهم من اقترحوا عليه ذلك الأمر، وأنه لم يبلغ السيد خوان لمّا تبين له أنهم لا يخبرونه بالحقيقة.

عندئذ فطن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى سوء نيته ، فتسلم مقاليد الأمور بعقله الراجح وقبل أولئك المسلمين. كما ترك أوامره إلى قائد الحصن لكى يؤويهم عنده حتى يبعث إليه من يأمره بما يتعين القيام به فى شأنهم، كما أمره بقبول كل من يحضر لتسليم نفسه، وإحسان معاملتهم فى شتى النواحى. وهكذا قفل عائدًا فى ذلك اليوم إلى بورتشينا، بعد أن رأى أن المسلمين قد هجروا حصن كانتوريا. إلى هنا سنترك السيد خوان دى أوستريا فى بورتشينا، لكى ننتقل لتناول ما كان دوق سيسا بصدده برفقة الجيش الآخر فى بلدة أورخيبا؛ علاوةً على ذكر ما قام به السيد دييغو رامريث -قائد قلعة شلوبانية-، والسيد خوان دى كاستيًا Juan de Castilla، فيما يتعلق بقلعة بلش التابعة لقرية بن عبد الله Ben Audalla وحصن لينتيخى.

الفصل السابع عشر

يتناول الكيفية التي تم من خلالها الاستيلاء في تلك الأيام على قلعة بلش دي بن عبد الله، وكذلك حصن لينتيخي.

في أثناء وجود دوق سيسا في معسكره بأورخيبا، تنامى إلى علمه كيف أن المسلمين قد عينوا رجالاً ليقوموا بدور الحامية في قلعة بلش دي بن عبد الله، وأن هؤلاء يخرجون لإحداث خسائر بمن يعبرون طريق مطريل وبذلك الساحل بأكمله. فبادر بإرسال السيد خوان دي كاستيًا إلى هناك مع ألف من المشاة ومائتي فارس، كما كتب إلى السيد دييغو راميريث -قائد حصن شلوبانية- ليحيطه علماً بتلك المهمة من أجل أن يزوده بقوات، ومطالبًا إياه في إلحاف شديد أن يضطلع هو بذاته بتلك الحملة، لأن القضاء على جماعة اللصوص تلك هو أمر ضروري للغاية لمصالح جلالة الملك. إبان وصول السيد خوان دي كاستيًا إلى شلوبانية، قام السيد دييغو راميريث بإعداد قطعتي مدفعية ثقيلة، بالإضافة إلى قطعتين من الحجم الصغير، من أجل قصف دفاعات المدينة. وللحيلولة دون مغادرة المسلمين للمحل قبيل وصوله، أمر قائد فرقة الجنود فرانثيسكو دي أرويّو لكي يتقدم برفقة فرقته ومجموعة من الفرسان، ويتجه لشغل منازل المدينة -الكائنة أسفل القلعة على سفح الربوة- التي كانت شاغرة في أثناء الليل؛ بينما انطلق هو من شلوبانية مع باقي القوات بأكملها بحلول مساء يوم السادس والعشرين من شهر مارس. لمّا لم يكن ممكنًا نقل قطع المدفعية مركبة -نظراً للوعورة البالغة التي يتسم بها الطريق، أمر القائد بتفكيكها وتحميلها على الألواح الثخينة، ثم جرها بقوة الأذرع العارية لمسافة تقارب فرسخين صعوداً إلى أعلى النهر.

دلف فرانثيسكو دى أروِيو فى سرية شديدة إلى المنازل -وفقًا للنظام المتفق عليه- بيد أن الجنود لم يتحلوا بالهدوء اللازم، فاستشعر المسلمون وجودهم، وكانوا قد ساءهم مشاهدة مرور الجموع المرافقة للسيد خوان دى كاستيّا. لكنهم اطمأنوا فيما بعد حينما تحدث إليهم فرانثيسكو دى أروِيو وأخبرهم أنه كان أحد المواكب الكبيرة التى تقوم بجلب الإمدادت. لم يتسن لرجالنا بلوغ الموضع حتى اليوم التالى، نظرًا للعائق الذى مثلته أسلحة المدفعية؛ فقام السيد خوان دى كاستيّا فى تلك الليلة بإرسال أحد جنود المشاة إلى دوق سيسا يطلب منه المزيد من الرجال والدوريات. وقد أرسل إليه ذلك الأخير خمسمائة من حملة البنادق برفقة كل من: القائد خوان دى بورخى Juan de Borge، والقائد إنييغو دى أروِيو سانتيستيبان، والقائد لويس ألباريث دى سوتومايور Luis Álvarez de Sotomayor. فى أعقاب ذلك فرض رجالنا حصارًا على القلعة، التى كانت مشيدة أعلى ربوة مستديرة تتسم بالارتفاع والوعورة والمساحة الشاسعة، ولايمكن ارتقائها وبلوغ أعلاها إلا بعد تكبد أخطار بالغة؛ ثم توجه القادة لتفقد المكان، واتخذوا قرارًا بنصب أسلحة المدفعية أعلى الربوة، فى موضع مستو للغاية ويبعد خمسين قدمًا عن الأسوار. نظرًا لعدم إمكانية صعود الأسلحة على العجلات، فقد حملّها الجنود على الألواح السميكة والأبواب التى تم انتزاعها من منازل البلدة، بعد أن مهّد بعض الممرات الصعبة باستخدام التراب والأحجار.

بعد أن تم نصب أسلحة المدفعية، بدأ القصف فى الأمسية ذاتها بحلول وقت الصلاة. فى أثناء توزيع القائد لويس غودينيث دى ساندوبال Luis Godínez de Sandoval البارود على جنوده، اشتعلت فيها النيران، فأحرقته هو ومن كانوا بالقرب منه. دافع المسلمون عن أنفسهم، وقتلوا جنديين بالبنادق عبر الحواجز الوقائية؛ وحينما أدركوا أن دفاعاتهم الواهية لن تجدى نفعًا، تحدثوا إلى بعض الجنود الذين كانوا يتولون مهام الحراسة أمام بوابة القلعة؛ فتركوهم يغادرونها بحلول منتصف الليل مع نسائهم وثيابهم، بعد أن منحوهم قدرًا وفيرًا من النقود. اتضح فيما بعد أن ذلك الأمر كان متفقًا عليه، لأنه على الرغم من إطلاق دوريات الحراسة للنفير، فقد أخبرهم من أرشدوا المسلمين عبر الطريق أن تلك الجموع هى الدورية التى تتفقد أحوال دوريات الحراسة؛ وهكذا استطاعوا المرور بعد أن احتالوا على القادة دون أن يمكن التوصل لمعرفة

الرؤوس المدبرة لتلك المسألة، رغمًا عن وجود نفر ممن ارتيب في أمرهم وقام دوق سيسا لاحقًا بحبسهم على ذمة تلك القضية.

في صبيحة اليوم التالي، وبعد أن رأت قواتنا أن المسلمين لا يطلقون النيران، أرسل السيد خوان دي كاستيّا من يقوم بتفقد القلعة؛ فلمّا ألفاها خاوية، وليس بها سوى شيخ مسلم وثلاثة من النساء لا يقدرون على الحركة، قامت قواتنا باحتلالها. عندما تم إعلام دوق سيسا بما جرى، سر بأن القلعة لم يتم قصفها، وأمر بإيداع مائة من الجنود بداخلها كحامية، لأنها تقع في ممر مهم. كما أمر خوان غونثاليث كاستريخون Juan González Castrejón أن يتولى تجميع مائة وخمسين رجلاً للاضطلاع بتلك المهمة، حتى لا يبيت لزامًا ترك رجال من الجيش هناك. لم يكن الضرر الذي تسبب فيه الجشعون بالقليل عندما سمحوا لألئك المسلمين بالفرار، لأنه -إضافةً إلى وجود سبعة من قادة الفرق، الذين كان يمكن أن تنزل بهم عقوبات رادعة بالداخل- فقد توجه أولئك الرجال لدى خروجهم من هناك، لاحتلال المعابر التي كان يتعين على جنودنا المرور من خلالها للرجوع إلى معسكر دوق سيسا. ولمّا كان العديد من الجنود قد انفصلوا عن الركب، انقض عليهم الأعداء، وقتلوا وأسروا الكثيرين منهم، وعلى ذلك النحو يكونوا قد دفعوا غاليًا مقابل الضرر التي ألحقوه بنا.

في تلك الآونة، قام القائد أنطونيو دي بيرّيو Antonio de Berrío -الذي كان ضمن الحامية الموجودة في بلدان غواخار- بالإغارة على موضع لينتيخي. وكان المسلمون قد أنشئوا به حصنًا، وأقام فيه نفر منهم، فهجم عليه القائد في عزيمة ماضية، حتى أنهم لم يجسروا على المكوث فيه. انفصل الجنود عن الركب نظرًا للجشع الذي دفعهم لمحاولة أسر المسلمات اللواتي بادرن بالفرار؛ وكان من الممكن أن يهلك الرجال لو لم يقم القائد بالحفاظ على سرية من الجنود دون أن ينفرط عقدها. لأن المسلمين عاودوا تنظيم صفوفهم بعد أن شهدوا وقوع نسائهم وبناتهم في الأسر، وانقضوا على الجنود غير المنظمين، فقتلوا وجرحوا بعضهم. بيد أن بيرّيو هب لنجدة رجالة في حماسة بالغة، فألحق الهزيمة بالأعداء، وجمع الغنائم، ثم قفل عائدًا بها إلى معسكره.

الفصل الثامن عشر

يتناول المخطط الذى نفذه ابن عبو من أجل قطع الطريق على إحدى الدوريات التى كانت متجهة إلى معسكر دوق سيسا ناقلةً بعض المؤن.

كان دوق سيسا على أهبة الاستعداد للانطلاق من أورخيبا مع جيشه الرائع، ذى التسليح الجيد والرجال اللامعين؛ ولم يكن ينقصه سوى الزاد، لأن الجيش كان قد استهلك كميات لا حصر لها من المؤن فى أثناء وجوده فى ذلك المعسكر. ومن أجل أن يجىء بها فى موكب ضخم، بعث بالقائد أندريس دى ميسا **Andrés de Mesa** برفقة خمسمائة من حملة البنادق ونفر من الفرسان وسائر الأمتعة، لكى يتولى تحميلها فى الساقية والبادول، إلى جانب مرافقته للإمدادات الآتية من غرناطة. عندما تنامى إلى علم العدو أن موكبًا بتلك الضخامة يتجه إلى البادول، تراءى لهم أن ما من شىء سيخدم غايتهم أكثر من قطع الطريق عليه، فعقدوا العزم على الإغارة على الركب. من أجل أن يتسنى للعدو القيام بتلك الغارة دون أن يتعرض لأى أذى، أمر ابن عبو كلاً من بدرو دى مندوثا الشعيبى والماكوش والدالى أن يتوجهوا مع ألفين من الرجال لنصب كمين للركب وقطع طريق العودة عليه. وفى أثناء اضطلاعهم بتلك المهمة، ذهب هو والرجال الآخرين المتبقين فى حوزته لتفقد جيشنا وإلهاء دوق سيسا.

كان قد مضى تسعة أيام دون اكتشاف وجود أى من المسلمين، أو التوصل لمعرفة معلومات مؤكدة حول مكان وجود العدو؛ فلمّا خرجت إحدى الدوريات لاستطلاع المكان فى هذا الصباح، جلبت معها رجلين مسلمين تم إلقاء القبض عليهما، فعلم رجالنا عن طريقهما كيف أن القوات ما زالت فى بوكيّرة، وأنه قد وفد إليهم العديد من الرجال من

نهر المنصورة. فى ذلك اليوم -الموافق الرابع من إبريل- وفى الساعة الرابعة مساءً تم اكتشاف ثلاثة كمائن نصبها العدو فى منطقة جبل بوخول، وأعلى الطريق الكائن على الجهة اليمنى والمفضى إلى ميناء خوبيليّ Jubiley. بعث الدوق بالسيد خورخى موريخون مع بعض الفرسان ونفر من حملة البنادق الراجلين لإقصائهم من أماكن وجودهم، فنشبت اشتباكات بينهم، وأخذ المسلمون فى التقهقر باتجاه المناطق المرتفعة، مما أغرى الفرسان بملاحقتهم. عندما فطن دوق سيسا إلى ما يجرى، أمر بتدعيمهم بأعداد أكبر من حملة البنادق، لأن المسلمين -حينما أدركوا أن الكفة تميل إلى جانبهم وأن الخيول ليس بمقدورها التحرك فى تضاريس الموضع الذى يشغلوه- بادروا إلى الانقضاض عليهم. بيد أن الأحداث لم تكن فى صالحهم، لأن حملة البنادق التابعين لنا اشتبكوا معهم فى استبسال شديد، حاملين إياهم على التراجع بعد أن منيوا بخسائر، بينما لم يصب بين صفوفنا سوى مسيحى واحد.

فى تلك الآونة اتضح وجود أعداد ضخمة من الأعداء ناحية بوكيّرة، وكان الوقت قد تأخر للغاية، حتى لم تكن قد بقيت ساعة من ضوء الصباح، وكان برفقتهم ثلاثة أو أربعة فرسان؛ وقد شرعت تلك الجموع فى الهبوط إلى حيث يوجد الآخرون، مبدين رغبتهم فى تطويق معسكرنا. على الجانب الآخر عمد الدوق إلى تنظيم صفوف الكتائب، فدعّم بعض الروابى التى كان قد أودع بها الرجال وأسلحة المدفعية، ووجههم صوب الأعداء، حيث دار قتال محتدم بينهم وبين حملة البنادق، الذين لم يكن يفصلهم عنهم سوى واد واحد فى المنتصف. بات المسلمون خائفين، حتى أنهم لم يجسروا على الدنو من رجالنا، الذين عبروا الهوة بعد حلول المساء، وانقضوا على الأعداء حاملين إياهم على التراجع إلى أعلى الجبل، وظلوا يلاحقونهم خلال فترة طويلة، ويعملون القتل والجرح فى الكثيرين منهم. حينما أمسى الوقت متأخراً للغاية، أمر الدوق بإطلاق النفير لحشد الجنود، فما كان من ابن عبو إلا أن تقهقر إلى الجبل دون أن يشن أى غارة أخرى، بعد أن خلّف وراءه خمسين قتيلاً من المسلمين. أما إيرناندو دى أوورنيا -القائد الكبير سناً وصاحب الخبرة الطويلة- فقد ارتاب فيما ينتويه الأعداء،

وأخبر دوق سيسا فى ذلك اليوم أن ما جرى كان إحدى الخدع الحربية، وأن ابن عبو لابد وأن يكون قد أرسل قوات لقطع الطريق على موكب الإمدادات، وأنه ينبغى لنا إرسال رجال من المشاة والفرسان لتأمينه.

أكد أحد المسلمين لاحقًا هذا الرأى، وكان ثلاثة من الجنود قد ألقوا القبض عليه فى أثناء مطاردتهم لجيش ابن عبو؛ حيث أقر لنا أن نيتهم كانت إلهاء الدوق. بعد أن أدرك الدوق ذلك الغرض، أرسل السيد مارتين دى باديًا مع خمسمائة من حملة البنادق وثمانين فارسًا لتدعيم الركب، ثم أتبعهم بخمسمائة آخرين من حملة البنادق، حيث تنامى إلى علمه أنه تم اكتشاف وجود مائة وخمسين من المسلمين. كان أندريس دى موسا Andrés de Mosa قد كاتب دوق سيسا فى تلك الليلة من الساقية ليحيطه علماً بقدومه، وقد تأخر تسليم الخطاب كثيراً، حتى أنه -نظراً للثقة الكبيرة التى أولاها لمن برفقته من الرجال- كان من الممكن أن يلحق المسلمون بهم أضراراً بالغة، حيث هبط هؤلاء من جبل أورخيبا، وقسموا أنفسهم على أربعة كمائن فى المعبر الكائن ما بين الساقية ولانخارون، فى انتظار عبور الرجال من أجل الانقضاض على موكب الإمدادت، الذى كان قد انطلق من البادول فى الصباح ذاته حاملاً ألفين وخمسمائة من الأمتعة المعبأة، وقدم فى تلك الليلة إلى موضع الساقية.

فى صباح اليوم التالى، سلك الركب طريق لانخارون، ولدى بلوغ المعبر الذى يعلو المنخفض، خرج إليه المسلمون المختبئون فى الكمائن من أربع اتجاهات، وانقضوا عليهم فى حمية شديدة حتى أن الجنود المقسمين إلى طليعة وساق لم يتمكنوا من التصدى لهم والحيلولة دون اختراقهم لمنتصف الموكب وقطع الطريق عليه. انهمك الأعداء فيما بعد فى إراقة المؤن، وتخريب الأمتعة، وانتقاء بعضها ليحملوها معهم لدى رجوعهم إلى الجبال. حينما شاهد القائد أندريس دى ميسا مدى عجزه عن مساندة المقدمة أو التصدى للخطر المحدق الراهن فى ظل تلك الفوضى العارمة -لأن الموكب كان ممتداً لمسافة تربو على فرسخ كامل من الطريق-، ساق أمامه ما تسنى له جمعه من الأمتعة، وقفل عائداً إلى الساقية، كما قام بتنبيه كل من لم يكونوا قد عبروا بعد إلى الهاوية.

قاتل السيد بدرو دى بيلاسكو Pedro de Velasco فى ذلك اليوم كما الفارس المغوار، وكان قد حضر -بمقتضى أمر جلالة الملك- للتعجيل بخروج الماركيز ولتقصى أحوال الجيش. قام بالأمر ذاته كل من مواطن سمورة خوان دى بورّاس Juan de Porras، والرجل القرطبى ألونسو مارتين دى مونتى مايور Alonso Martín de Montemayor، ولاثارو مورينو دى ليون Lázaro Moreno de León -قائد حملة البنادق من الفرسان والمواطن الغرناطى- حيث دافع كل منهم عن الجبهة التى كان يشغلها. أما السيد بدرو دى بيلاسكو Pedro de Velasco، فكان سيلقى حتفه حينما قتل العدو فرسه وهو يعتلى صهوته، لولا أن هب لنجدته السيد أنطونيو دى سوتومايور Antonio de Sotomayor -نجل الأب سوتومايور Sotomayor مأمور المحكمة العليا فى غرناطة. قُتل فى هذا الاشتباك اثنا عشر مسلماً، وجرح الكثيرون، بينما كان هناك قتيلان وأربعة جرحى ضمن صفوف المسيحيين. كانت الخسائر ستضحى أكبر بكثير لو لم يصل السيد مارتين دى باديًا فى الوقت المناسب، مما أتاح له إمكانية إنقاذ الرجال واسترجاع القدر الأكبر من الأمتعة التى كان الأعداء قد استولوا عليها. كما اصطحب معه الأمتعة التى كانت قد حُشدت فى الساقية، وقفل عائداً بسائر المتاع إلى المعسكر فى وقت متأخر للغاية من تلك الليلة.

سلب الأعداء أربعين من البغال المحملة بالدقيق والكعك، وسروا بها سروراً غامراً، كما لو كانوا قد حققوا نصراً مظفراً. ألقت قواتنا القبض على اثنين من المسلمين -أحدهما من البيّازين التابعة لغرناطة، والآخر من بلدة ديلار-، فقال هذان الرجلان فى أثناء تعذيبهما إن من قاموا بالإغارة على موكب الإمدادات كان يزيد عددهم على ألفى رجل، ومن بينهم مائتان من الأتراك المسلحين بالبنادق. كما أن المسلمين قد أمّنوا المعبر الخاص بجسر بوكيّرة، والكائن أسفل بلدة كابيليّرة، وتم عمل إصلاحات واسعة وحفر خنادق ترابية ضخمة فى شتى أرجاء المرتفعات، وكذلك فقد تم اعتراض الطرق والسبل الخاصة بالرعاة بجذوع الأشجار الضخمة للحيلولة دون تمكن الفرسان من استخدامها. فى أعقاب بلوغ الموكب الخاص بالإمدادات أورخيبا، عقد دوق سيسا العزم على الانطلاق فى اليوم التالى، حيث تم توزيع أنصبة المؤن والذخائر على القوات، ووُضعت كل الأمور فى نصابها استعداداً للرحيل.

الفصل التاسع عشر

يتناول انطلاق دوق سيسا من أورخيبا، وتوجهه للتمركز عند بئر كاميوثانو، وأحد الاشتباكات التى دارت بينه وبين قوات ابن عبو.

على ضوء التنبيهات الذى تلقاها دوق سيسا حول تحصينات العدو، قرر أن يسلك طريقًا مغايرًا لذلك الذى كان ينتويه. حيث ترك ألف رجل كحامية فى المعقل الذى أنشأه فى البسيط التابعة لأورخيبا، وانطلق من ذلك المعسكر فى السادس من شهر إبريل يرافقه كل من: كونت أورغاث Orgaz، وكونت بايلين Bailén، وماركيز فابارا، والسيد خوان دى مندوثا سارمينتو، والسيد روى لوبيث دى أبالوس Ruy López de Ávalos، والسيد غونثالو تشاكون، وغيرهم من الفرسان البواسل. كان الجيش يتكون من ثمانية آلاف من المشاة، وستة آلاف وثمانمائة من الرماة، وخمسمائة وخمسين من الفرسان؛ بالإضافة إلى الرجال الذين جلبهم سادة الإقطاع وغيرهم من ذوى الشأن -وكانت أعدادهم غفيرة. كما كان هناك اثنا عشر مدفعًا، وألف وخمسمائة من الأمتعة، وقد رافقهم السيد بدرو دى بيلاسكو Pedro de Velasco إلى غرناطة، من أجل التوجه إلى الملك لإحاطة جلالته بما كان من شأن التكليفات التى عهد بها إليه.

شرع جيشنا فى الصعود إلى أعلى جبل بوكيّرة، حيث كان العدو متمركزًا يستعرض ما لديه من قوات غفيرةً، إضافةً إلى احتلاله للقمم. كانت الكتائب تسير رويدًا رويدًا، بخطى بطيئة للغاية، حتى أنها رغم انطلاقها فى الصباح الباكر فإن النهار كان قد انتصف لدى بلوغ طليعة الجيش مشارف بوكيّرة -بعد قطع فرسخ ونصف من الطريق. وذلك على مسافة قريبة للغاية من الموضع الذى كان ابن عبو يشغله مع قواته

عند المعبر فى انتظارنا، اعتقاداً منه أن معسكرنا سيدخل من تلك الناحية. بيد أن الدوق سلك طريقًا ينحدر إلى أسفل النهر على سبيل المراوغة، من أجل أن يسير فى طريق خوبيليس ما بين فيريّرة ونهر كاديار، عند بئر تسمى كامبوثانو Campuzano، توجد على مشارف بورتوغوس . عندما فطن المسلم إلى أنه قد خُدِعَ، أمر بإرسال إشارات دخانية كبيرة لاستدعاء المسلمين إلى حيث يسير رجالنا، لكى يحتلوا معبراً آخر فى جبل بيتريس -كان يتعين على قواتنا المرور به- ويشنوا العديد من الهجمات من أرجاء متفرقة.

أوقف جيشنا مسيرته قبيل عبوره النهر، الذى كانت مداخله ومجراه شديدة العمق، وتمتلئ بالأحجار والصخور التى تجعلها بالغة الوعورة؛ كما كانت المساحة شاسعة، على نحو أتاح للأعداء فرصة الوصول لاحتلال مصب النهر، فى الوقت الذى كان ماركيز فابارا يصعد أعلى الربوة -بعد أن عبر مع طليعة الجيش- وكانت ترافقه كتيبة الحدادين التابعة لسانشو بيليث دى تيران مونتانيس Sancho Vélez de Terán Montañés، وفرسان كونت تينديّا، وأربعمائة من حملة البنادق، لاحتلال القمة المرتفعة التى كانت تشرف على الموضع الذى كان ينبغى لجيشنا شغله. فأخذ يقاتل الأعداء حتى وصل إلى بعض الصخور التى تتسم بالوعورة والانحدار الشديدين، حتى أنه لم يتمكن من تخطيها؛ ولّما كان الأعداء على الجانب الآخر، فقد اضطر إلى إيقاف مسيرته والانتظار إلى حين اندلاع القتال

فى تلك الآونة، قام المسلمون -الذين يهبطون إلى سفوح الجبال- بالانقضاض على مؤخرة الجيش، وقد شنوا هجومهم من أنحاء شتى، حتى أنه بات لزامًا على الدوق العودة مع أسلحة المدفعية وجانب من الفرسان. أشرف الدوق بنفسه على اتخاذ كافة التدابير اللازمة، وذلك فى ظل أجواء باردة تكثر فيها الرياح وتمتلئ السماء بالغيوم، مما عطّله إلى غروب الشمس، حينما حضر السيد خوان دى مندوثا برفقة قلب الجيش إلى معسكر الإقامة فى وقت متأخر للغاية، حيث شن رجالنا هجوماً بالبنادق على المسلمين -الذين كانوا يأتون بإشارات تدل على رغبتهم فى القتال-، فحملوهم على التراجع بعد

أن منيوا بخسائر، رغمًا عن شنهم للعديد من الهجمات. مكث القائدان ثينتينو Centeno -أحد أهالي مدينة رودريغو Ciudad Rodrigo- ولويس ألباريث دى سوتومايور برفقة فرق المشاة التابعة لهما، ليكونا بمثابة مؤخرة للجيش بأسره؛ فبقيا فى بعض المنازل الضخمة والكائنة عند أحد السهول وربوة صغيرة متاخمة لمكان وجودهما، من أجل تكوين جبهة فى أثناء عبور رجالنا للنهر. وهنالك انقض عليهم الشعيبى برفقة ما يربو على خمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق، وأفواج أخرى غفيرة تحمل المقاليع والحراب. بيد أن القائدين دافعا عن جبهتهما فى استبسال، وقد هب لنجدتهما السيد لويس دى كوردوبا وإيرنانديو دى أوورنيا -اللذان كانا يقودان المؤخرة-، فحملوا الأعداء على التقهقر، وقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم. إبان بلوغ قواتنا النهر، عاود المسلمون الإغارة عليهم من شتى الأرجاء، كما قاموا بالأمر ذاته فى أثناء ارتقائهم للمرتفع المفضى إلى البئر؛ لكنهم لم يحدثوا سوى أثرًا طفيفًا، حيث بادر بإنقاذ رجالنا كل من البوكى(٢٣) el buque والسيد مارتين دى باديًا وفرسان أخرين ممن بذلوا جهداً شاقًا على مدار ذلك اليوم.

عندما أدرك الأعداء أنه ليس بمقدورهم تحقيق الغرض الذى يرمون إليه من وراء هجماتهم، صعدوا فى عجالة لاحتلال الرابية التى تقع أعلى البئر من ناحية بورتوغوس؛ إلا أن الدوق -الذى ارتاب فى إمكانية شن هجوم من ذلك الموضع- أمر بتوجيه أسلحة المدفعية صوبهم وفتحها عليهم. وهكذا تصدى لهم، وحال دون احتلالهم إياها، ليبسط هو سيطرته عليها، وذلك من خلال قصفهم بالمدفعية، بالإضافة إلى الفرسان والراجلين الذين وثبوا عليهم فى تلك الناحية. كان جيشنا قد شرع فى نصب معسكره وتشكيل دوريات الحراسة، حينما انسحب ماركيز فابارا. كان هناك قدر من الاضطراب فى أثناء نصب المعسكر، نظرًا لحلول الليل وقسوة الأجواء، وقد جُرِحَ غونثالو تشاكون -الذى كان يرافق ماركيز فابارا- والعديد من الجنود الآخرين. حشد ابن عبو رجاله،

(٢٣) هذا لقب شخص لا يرد اسمه. (المراجع)

وتوجه لتكوين جبهة فى مقابل مخيمنا، بحيث يكون النهر فى المنتصف بينهما؛ وقد كان فى موضع قريب للغاية، حتى أن الرماة تمكنوا من إطلاق نيرانهم من جهة إلى أخرى بكامل الحرية، محدثين الخسائر. كما تم إشعال العديد من الحرائق، وظل المسلمون يرمون قواتنا بنيران بنادقهم لما يزيد عن الساعتين؛ وكان وابل الطلقات والحراب التى قاموا بقذفها من تلك السفوح كثيفًا، حتى لم يعد هناك أى موضع بمأمن منها.

سعى الدوق لتعزيز جيشه عن طريق حملة البنادق على أفضل نحو تسنى له فى تلك الجبهة، وكان دائمًا يجول على صهوة فرسه لتفقد وبث الحماس فى ثكنات الحراسة والدوريات؛ حيث كان ظلام تلك الليلة حالكًا، ولم يكن الرجال يرون بعضهم بعضًا سوى على ضوء نيران البنادق. استمر تبادل إطلاق النيران على تلك الشاكلة حتى منتصف الليل، لتسود من بعدها هدنة فرضها الإعياء والأجواء الغائمة. أما المسلمون فقد خلّفوا النيران موقدة، وشرعوا فى مسيرتهم صوب خوبيليس قبيل بزوغ الفجر، دون أن يضطلعوا بأى مهمة أخرى. وإذا ما أردنا أن نتذكر الحقيقة، فعلينا القول بأنهم شنوا هجماتهم فى ذلك اليوم على غرار الجنود المحنكين، لكن قواهم خارت وهزموا كما الأدناء. فطن الرجال فيما بعد إلى أنه فى حال قيام العدو بشن هجوم دفعةً واحدةً فى غضون تلك الليلة، فإن جيشنا سيتعرض للمخاطر؛ لأن الفوضى كانت عارمة، فهم من فرط خوفهم بات الكثيرون منهم يختبئون أسفل الأمتعة، لكى لا تنال منهم الطلقات والحراب التى كانت تتطاير فى الهواء. بيد أن عزم القادة والفرسان والنبلاء، إلى جانب التدابير التى اتخذها الماركيز، وكانت ترمى إلى تفكيك قوى العدو دون المجازفة بخوض يوم واحد من المعارك، كان مجديًا للغاية. ويبدو أنه كان هناك توافق بين ابن عبو والدوق فى هذا الصدد، لأن كلاً منهما كان يهدف إلى القضاء على الآخر، وهزيمته مستعينًا بعامل الزمن ونقص الزاد.

الفصل العشرون

يتناول عبور دوق سيسا إلى بورتوغوس، وإرساله من يقوم بتفقد الجبال.

قضى دوق سيسا ليلته بأسرها متنقلاً بين نوبات الحراسة، وقد بذل فيها بنفسه مجهوداً شاقًا. فلمّا بزغ ضوء النهار، أراد أن يرحل عن تلك الأماكن التى تتسم بالوعورة والانحدار، فأصدر أوامره بأن ينتظم الرجال جميعًا فى أماكنهم استعداداً للتحرك. حينما وردت إليه تنبيهات، عن طريق رجلين مسيحيين أتياه هاربين من معسكر المسلمين فى تلك الليلة، عن ذهاب العدو إلى خوبيليس، وأنه قد قام بتحصين القلعة، لأنه ينتوى الاحتماء بها، سلك روابى جبل خوبيليس؛ ودون أن يبلغ بورتوغوس، سار على مدار اليوم بأكمله حتى الساعة الثالثة مساءً عندما وصل إلى موضع كاستاريس، حيث نصب المعسكر فى أحد المروج الكائنة بالقرب منه، عند المكان الذى توجد به المياه -على الرغم من قلتها-؛ وقد أمر أن يبيت الرجال جميعًا شاهرين أسلحتهم، ظنًا منه أن الأعداء سيشنون عليه غارة ما، نظراً لوجود معسكره عند سفح الجبل.

أصدر دوق سيسا أوامره فى تلك الليلة ذاتها إلى السيد خورخى مورخون، لكى يذهب لتفقد خوبيليس برفقة فرسانه والفرسان التابعين لكونت تينديا، بالإضافة إلى أربعة من فرق المشاة كان يترأسهم كل من: السيد إيرناندو ألباريث دى بوهوركيس، وخوان فيرنانديث دى لونا Juan Fernández de Luna، والسيد كارلوس دى سامانو Carlos de Samano، وإنييغو دى أرّويو سانتيستيبان. استطلع القائد القرية، فلمّا ألفى المسلمون قد تركوها خاوية، وأنه ما من أحد فى القلعة، بادر بالرجوع إلى الدوق. انطلق الجيش من كاستاريس فى اليوم التالى، وذهب للتمركز فى بورتوغوس.

فى أثناء الطريق، اكتشفت السرايا التى تحتل المقدمة وجود أعداد غفيرة من المسلمين، الذين أبدوا بعض الرغبة فى الفرار؛ بيد أن الدوق كان قد صفّ الجنود فى تشكيل متلاحم للغاية، فلم ينفصل أحدهم عن الركب من أجل الاشتباك معهم.

انطلق السيد خوان دى مندوثا والسيد لويس دى كوردوبا من ذلك المعسكر، يرافقهم ألفان من المشاة ومائتان من الفرسان بغية تفقد تلك الأراضى. سلكوا أعالى الجبل الذى يقع أعلى فيريّرة، وانقضوا بغتةً على بلدة بوكيّرة، فنهبوها، وأسروا حوالى مائة شخص عثروا عليهم بالداخل، كما هدموا الترميمات التى كان الأعداء قد قاموا بها، وأيضًا الخندق الترابى الذى أقاموه -وكان بالغ الغرابة والتحصين. جاب القائدان ذلك الجبل بأسره، فقتلوا وأسروا بعض المسلمين، ثم رجعوا إلى المعسكر دون أن يعترض طريقهم أحد، لأن العدو -بعد أن فشل فى تحقيق مبتغاه فى يوم البئر- لم يجرؤ على الانتظار فى خوبيليس، حيث تراجع مع الجيش بالكامل إلى ميثينا دى بومبارون، وإلى مواضع أخرى داخل البشرات.

فطن البعض إلى أن ما حدث كان بمقتضى النصح الذى أسداه الحبقى، الذى قال إنه لن يغامر بخوض معركة مع الدوق -الذى يتفوق عليه فى شتى النواحى-، وإنما سيرهقه عن طريق الدخول معه فى مناوشات، وإخضاعه بتعريضه للجوع. فهو، وإن ألحق به الهزيمة، لن يكون قد حقق سوى مكاسب قليلة، إذا ما شكّل جلالة الملك جيشًا أكبر، وعاود إرساله لمحاربته، وأن أفضل السبل هو إلهائه إلى حين تزويده بالإمدادات من المحاربين الغرباء. كان ذلك بالضبط هو ما أخبرنا به كاراكاش لاحقًا فى أندرش، فقال إنه هو من نصحه بذلك، وإن ذلك كان الداعى وراء عدم إغارة المسلمين على جيش الدوق فى تلك الليلة(٢٤). فى أثناء بقاء دوق سيسا فى ذلك المعسكر، أصدر أوامره إلى

(٢٤) يقصد الليلة التى أمر فيها دوق سيسا رجاله أن يبيتوا جميعًا شاهرين أسلحتهم، ظنًا منه أن الأعداء سيشنون عليه غارة ما، نظرًا لوجود معسكره عند سفح الجبل. (المترجمة)

الأب كاستيّو -الذى كان يرافقه- لكى يتولى كتابة بعض الخطابات إلى أصدقائه ومعارفه باللغة العربية، ليقنعهم بتسليم أنفسهم، وعدم الإصرار على السير فى طريق الفناء الذى يسلكونه؛ وأن يفهمهم أن جلالة الملك سينظر إليهم بعين الرحمة. وقعت إحدى تلك الرسائل بين يدى الدرّة، فما كان منه -إزاء عدم رغبته فى الاستسلام والبقاء فى تلك الأراضى- إلا أن صعد على متن بعض المراكب، فى صحبة امرأته وبنيه ومن تسنى له حملهم من أصدقائه، ومضى إلى تطوان.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول التقدم الذى أحرزه جيش السيد خوان دى أوستريا منذ انطلاقه من بورتشينا وحتى إقامته فى سانتا فى الموجودة فى ريوخا، والتدابير التى تم اتخاذها فيما يتعلق بإخضاع المسلمين.

فى أعقاب الأوامر التى أصدرها السيد خوان دى أوستريا بتدمير تيخولا وتخريب زروعها، وإقامته لمعقلين فى سيرون وبورتشينا، مضى إلى كانتوريا؛ فترك حامية فى ذلك الحصن الذى ألفاه مهجوراً، مؤلفةً من القائد بيرناردينو دى كيسادا برفقة فرقة من المشاة وأخرى من الفرسان. ثم غادر ذلك المكان فى الثالث من إبريل، وتوجه صوب سورخينا دى أغيلار Surgena de Aguilar، التى أودع بها الحامية بقيادة السيد لويس بونثى دى ليون، مع كتيبة الفرسان التابعة له وأخرى من المشاة. وانطلق من هناك فى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى، قاصداً نهر أغواس Aguas الذى يقع على مسافة تزيد على أربعة فراسخ. وقد مكث يوماً فى ذلك المحل فى انتظار إمداده بالزاد، ثم مضى فى السادس من إبريل إلى سورباس، التى ظل بها حتى اليوم الخامس عشر من الشهر. وقد بعث، من مأواه ذلك، بكل من السيد غارثيا مانريكى وخوان دى إسبوتشى مع خمسمائة من الفرسان إلى جبل فيلابريس، آمراً إياهم أن يدخلا إلى تاهالى، ويقيما بها معقلاً، ثم يتجها لتفقد خيرغال.

كان السيد خوان دى أوستريا ينتوى الحيلولة دون تزود المسلمين بالدقيق والشعير من تلك النواحى، لأنه فطن إلى أن هذا هو ما سيعمدون إليه، نظراً لعدم وجود موضع آخر تُحمَل إليهم منه المؤن؛ كما أن الجوع سيدفعهم إلى وضع خاتمة لما يهدفون إلى

تحقيقه مع المسيحيين. ألفى القائدان قلعة تاهالى خاوية، فأودعا بداخلها القائد خوان غاريدو دى سالثيدو Juan Garrido de Salcedo برفقة فرقة من المشاة وثانية من الفرسان. ثم مضيا لاستطلاع خيرغال، فلم يلاقيا طوال الطريق أى أفواج من المسلمين، بل عثرا على الكثيرين منهم متفرقين فى شتى الأرجاء بحثًا عن الطعام. استولى القائدان على أعداد كبيرة من الماشية، وعثرا على العديد من صوامع القمح والشعير، حيث استخرجا منها قدرا يكفى للمعاقل، أما ما لم يتسن لهما حمله، فقد أمرهما السيد خوان دى أوستريا أن يلقياه فى الماء أو أن يحرقاه، حتى يحول دون استفادة المسلمين منه. ولمّا كان مخطط استسلام الثوار الذى أُبرِم مع الحبقى يسير بخطى حثيثة، وكان المسيحيون قد أدركوا أن الجانب الأكبر من الثوار يرغبون فى تسليم أنفسهم، فقد صدرت الأوامر إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، لكى يخلّف فى خايينا شقيقه خيرونيمو بينيغاس Jerónimo Venegas، وأن يذهب هو للاضطلاع بتلك المسألة، نظرًا لكونه شخصًا يثق المسلمون فى كلمته.

كانت رغبة السيد خوان دى أوستريا تتمثل فى إشراك السيد غونثالو الثغرى Gonzalo el Zegrí –المواطن الغرناطى– فى هذا الصدد، بيد أنه اعتذر عن ذلك، قائلاً إنه سيقاتل المسلمين، لكنه لن يقدم على حملهم على الاستسلام، لأنه لا يوافق على ما بدر منهم من أفعال ، ويبدو له أنهم لا يستحقون أن ينالوا العفو على آثام بالغة الفحش كتلك التى اقترفوها. فى أعقاب الترتيب لتلك المسألة، واتخاذ العديد من التدابير الأخرى التى بدت ضرورية من أجل بلوغ الهدف المنشود، انطلق جيشنا صوب تابيرناس، مخلّفًا فى سورباس القائد ساليدو دى مولينا، مع فرقة أخرى من المشاة ونفر من الفرسان، على غرار الحامية. كما تم تنصيب السيد دييغو دى ليبيا قائدًا للجنود ومشرفًا على كافة معاقل نهر المنصورة –بدءًا من بورتشينا ونزولاً إلى الأسفل. فى اليوم التالى ظل السيد خوان دى أوستريا باقيًا فى المعسكر فى انتظار وصول المواكب التى ستأتى بالمؤن، فأرسل سائر الأمتعة الخاصة بالجيش إلى مدينة ألمرية لكى يتولى من بها تحميلها، وذلك فى رفقة دورية حراسة كثيفة كانت تشمل القائد العام لقوات قشتالة، الذى كان ذاهبًا من أجل التعافى من حمى كانت قد ألمت به فى تلك الأيام.

هنالك بلغت السيد خوان دى أوستريا فى أثناء وجوده بالمعسكر أنباء اقتراب الجيش التابع لدوق سيسا منه. ولمّا كان من الضرورى المضى فيما بعد إلى نهر ألمرية، لتضييق الخناق على الأعداء فى تلك الناحية، فقد أصدر أوامره بتحميل كافة الأحمال الخاصة بالجيش، والمؤن، والذخائر، فى الأمتعة التابعة للقادة ولذوى الشأن الرفيع ممن مكثوا فى المعسكر، دون انتظار عودة موكب الإمدادات. وفى أعقاب ذلك خلّف القائد بينيا روخا Peña Roja أمرًا على ذلك المعسكر، ومعه عدد من المشاة والفرسان؛ ثم غادره فى ذات اليوم -الموافق السابع عشر من إبريل- واتجه لبيبت تلك الليلة فى قرية ريوخا الصغيرة، حيث دفعته الحاجة الماسة للمؤن إلى التوقف بها، نظرًا لعدم تمكنه من التزود بها عن طريق البحر بسبب سوء الأحوال الجوية. بيد أن ذلك الشأن تم معالجته لاحقًا، بواسطة مواكب الإمدادات التى أُرسلت إليه من أبدة وبياسة والمناطق التابعة لنطاق كاثورلا.

فى أعقاب سد حاجة الجيش من الإمدادات، تابع مسيرته إلى سانتا فى. وفى تلك الآونة، تم قتل بعض المسلمين، وأسر آخرين أفصحوا عن حاجتهم الماسة والملحة إلى الطعام. فى تلك الأثناء كان جلالة الملك قد أرسل مندوبًا بالفعل إلى السيد خوان دى أوستريا، من أجل أن يقبل من يحضرون لتسليم أنفسهم فى خضوع، وقد أمر -خلال إقامته فى ذلك المعسكر- بنشر مرسوم عام كان فحواه على النحو التالى:

مرسوم بشأن من يسلمون أنفسهم

"أدرك مولاى جلالة الملك أن الجزء الغالب من موريسكيى مملكة غرناطة الذين تمردوا على حكمه تم دفعهم للقيام بذلك، ليس بمحض إرادتهم، وإنما كانوا مجبرين ومكرهين على ذلك؛ حيث خدعهم وغرر بهم عدد من الرؤوس المدبرة البارزة، والمحرضين، والقادة، والزعماء الذين كانوا ولا يزالون موجودين بين صفوفهم، وقد سعى هؤلاء لنشر الثورة بينهم، انطلاقًا من رغبتهم فى تحقيق مصالحهم الشخصية، ومن أجل التمتع واستلاب الممتلكات الخاصة بعموم الناس، وليس بدافع تحقيق أى نوع من المنفعة لهم.

فى أعقاب إصدار جلالة الملك الأمر بتجميع عدد من المقاتلين لمعاقبتهم، وفقًا لما تقتضيه الجرائم والآثام التى اقترفوها، والاستحواذ على الأماكن التى استولوا عليها فى نهر المنصورة وجبل فيلابريس والبشرات، فقُتِلَ وأُسِرَ العديد منهم، وأُجبِروا -بعد إخضاعهم- على أن يروموا الجبال ضالين وعلى غير هدى، وأن يحيوا -مثل الحيوانات المتوحشة- فى الكهوف والمغارات والغابات، ويعانوا الفاقة الشديدة. وقد حركت كل تلك الأمور مشاعر الشفقة -وهى إحدى الفضائل البارزة التى دأب الملوك على التحلى بها- فأراد أن يشملهم بعطفه، باعتبار أنهم أفراد رعيته، وراعه معرفة ما يقاسونه من ممارسات عنيفة واستباحة للنساء وإراقة للدماء وسرقات وشرور أخرى عظيمة من قبل المحاربين، وهى أمور لا يمكن تبريرها. وقد وكّلنا صاحب الجلالة من أجل أن نتمكن -نيابةً عن جلالته- من إسباغ عطفه الملكي عليهم، وأن نقبلهم فى معيته امتثالاً لأوامره الملكية، وذلك على النسق التالى:

يتم التعهد لكافة الموريسكيين الذين تمردوا على الطاعة والفضل الواجبين لجلالة الملك -رجالاً كانوا أم نساء- من أى درجة أو قدر أو مكانة، أنهم إذا ما حضروا خلال عشرين يومًا -من تاريخ صدور هذا المرسوم- للاستسلام ووضع أنفسهم بين يدى صاحب الجلالة، والسيد خوان دى أوستريا الذى ينوب عن جلالته، فسوف يحفظ لهم حياتهم؛ ويأمر بتطبيق العدالة، فى حق من يرون أنهم ارتكبوا الممارسات العنيفة والقمع الذى تعرضوا له ودفعهم إلى الثورة. كما أن صاحب الجلالة سيعمل معهم رحمته المعهودة فى شتى الأمور الأخرى. وتلك المعاملة تشمل هؤلاء، وكذلك من قاموا -علاوةً على تسليم أنفسهم- بتقديم خدمة جليلة؛ كما هو الحال بالنسبة لنحر أو جلب أسرى من الأتراك أو مسلمى شمال إفريقيا المنضمين إلى الثوار، أو غيرهم من أهالى المملكة الذين كانوا قادة أو زعماء للثورة. وأنهم إذا ما امتنعوا عن القيام بذلك، فسيمسون غير راغبين فى التمتع بالرحمة والفضل اللذين أمر جلالة الملك بتطبيقهما تجاههم.

وكذلك فإن كل من تجاوز سن الخامسة عشرة وهو دون الخمسين، ممن حضروا في غضون المهلة المذكورة لتسليم أنفسهم، ووضع كل منهم تحت تصرف مأموري جلالة الملك بندقية أو قوسًا فولاذيًا مع ذخيرتها ، سوف يتم الإبقاء على حياتهم ولن يُعاملوا كالعبيد؛ بالإضافة إلى ذلك فسيكون بمقدورهم الشفاعة في شخصين ليظلا أحرارًا: كالأب أو الأم أو الأبناء أو الزوجة أو الإخوة، وأولئك أيضًا لن يصيروا عبيدًا، بل سيتمتعون بحريتهم الأولية وحكمهم. على أن يتم التنبيه على أن من لا يرغبون في التمتع بذلك الفضل والمنة، فلن يحظى أي ذكر يتجاوز عمره الرابعة عشرة بأية مكانة، بل سيطبق عليهم جميعًا عقوبة الموت دون أن يلاقوا شفقة أو رحمة".

تم عمل نسخ عديدة من هذا المرسوم في سائر أرجاء مملكة غرناطة، وأصدر السيد خوان دي أوستريا أوامر إلى كافة مأموري جلالة الملك لكي يقوموا بموجبه بقبول كافة المسلمين الذين يحضرون لتسليم أنفسهم. وحتى يعلموا المكان الذي ينبغي عليهم اللجوء إليه، أوضح لهم موضع معسكره ومعسكر دوق سيسا والأماكن الرئيسة والأكثر قربًا من نقاط وجودهم. ومن أجل أن يتم التعرف عليهم، ولا يتعرض لهم المحاربون بسوء، فقد أمرهم أن يخيطوا صليبًا من القماش أو النسيج الملون على الكتف الأيسر من ثيابهم، على أن يكون بالغ الضخامة بحيث يمكن رؤيته بوضوح من بعيد. وقد صدر مرسوم آخر في ذلك اليوم يأمر بعدم القيام بأي غارات، لكي لا يعوق ذلك عمليات الاستسلام، لما ينجم عن تلك الحمـــلات من فوضى -على غرار ما حدث في المرة الأولى.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول التقدم الذى أحرزه جيش دوق سيسا منذ انطلاقه من بورتوغوس وحتى بلوغه أوخيخار، والكيفية التى قسّم بها ابن عبو قواته.

فى تلك الآونة، ألفى الثوار أنفسهم فى وضع لا يتيح لهم الدخول فى حرب أو العيش فى سلام. فقد كانت تعوزهم القوة اللازمة للإبقاء على جيشهم. وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يريدون السلام، فإنهم لم يقدروا على حمل أنفسهم على الاستسلام، نظرًا للآلام التى كانوا يكابدونها من جراء فقد النساء والبنين والممتلكات، فما كان من ابن عبو -الذى لم يفقد حماسته- إلا أن قسّم رجاله لكى يقطعوا المعابر على مواكب الإمدادات، وذلك عقب رؤيته للجيش التابع لدوق سيسا فى داخل البشرات. فأودع ألفًا وخمسمائة مسلم ما بين أوخيخار وأورخيبا، وألفًا ومائتين منهم ناحية أدرا والمرية، وثمانمائة فى منطقة جبل منتميس. كما أرسل فوجًا آخر إلى جبل شلير وصوب البونتال[٢٥]، لكى يغيروا على طرق غرناطة ووادى آش؛ بينما ترك لنفسه أربعة آلاف من الرماة، كان دومًا ما يوجه ألفين منهم صوب معسكر دوق سيسا من أعلى الجبال والأماكن الوعرة. وكان يظن أنه على هذا النحو سيلهى الماركيز، وسيتسنى له الإفادة من الفاكهة الموجودة فى الأراضى فى راحة أكثر، بينما يدفع جيشنا لمعاناة الجوع.

حينما فطن دوق سيسا إلى المخطط الذى أعده العدو، والأهمية البالغة المتمثلة فى حرمانه من المؤن، وأنه لن يعجل بالقضاء عليه أى سلاح غير نقص الزاد،

(٢٥) جبل موجود ما بين حصن اللوز ووادى آش. (المترجمة)

أمر باقتلاع الأشجار وتدمير البساتين في سائر أرجاء الإقليم وأينما حلّوا، وبعث بكتائب من الرجال إلى شتى الأنحاء لتفقد المزروعات في حذر شديد ونظام محكم، مما لم يتح للأعداء القدرة على مضايقتهم أو حتى الإقدام على التصدى لهم. تولى جيشنا تنفيذ ذلك الأمر منذ صدوره في الثاني عشر من شهر إبريل -وهو اليوم الذي غادر فيه بورتوغوس- وحتى بلوغه أوخيخار. في أثناء الحملة الأولى التى توجهت إلى خوبيليس، تم اكتشاف وجود بعض المسلمين الذين أظهروا رغبتهم في الاقتتال، بيد أنهم لجأوا إلى الجبل لاحقًا. أقام الدوق في المكان الذى كان مهجورًا، لأن المسلمين لم يشعروا بالأمان بداخله أو في داخل القلعة. وكانوا قد شرعوا في ترميمها وتقويتها: فأقاموا بالفعل حصونًا تحوى مخابئ، وخنادق من الحجر المدقوق السميك، إلى جانب عمل أحواض ضخمة لتجميع مياه الأمطار، وفرنًا لصنع الخبز، ومخزنًا للذخيرة، ومسكنًا لابن عبو، وذلك سعيًا لتأمين ذلك الموضع الذى كان في موقع منيع حقًا، حيث لم يكن به سوى مدخل واحد عبر بوابتين، كان الأعداء قد بدأوا في تشييدهما.

صعد الدوق لتفقد التحصينات، فألفاها على نسق كان سيكبده الكثير من أجل الظفر بها -لو كان الأعداء قد جسروا على الدفاع عنها- لأنهم لو قاموا بوضع مدفع واحد عند المدخل، كانوا سيتمكنون من إلحاق أضرار فادحة بنا. لم يكن المسلمون يفتقرون إلى ذلك السلاح، لأن ابن عبو كان قد طلبها من حاكم الجزائر، الذى منحه إياها مقابل سبعمائة دوقية من الذهب؛ بيد أنه لم يمتلك الوقت الكافي أو الحنكة اللازمة لرفعها إلى القلعة، فأودعها بالأسفل عند النهر، على مسافة نصف فرسخ من المكان- مع ذخيرتها بأكملها. نبه الماركيز إلى ذلك الأمر أحد مسلمى شمال إفريقيا الذين فروا هاربين إلى جيشنا، فبعث الدوق من يأتى بها؛ ولمّا لم يستطيع إخراجها من مكانها، أمر بتفكيكها ودفن أجزائها على نحو يعجز معه العدو عن العثور عليها. انطلق من ذلك المعسكر كل من السيد لويس دى كاردونا والسيد لويس دى كوردوبا بغية تفقد الجبل، وكان بصحبتهما ألفان من المشاة ومائة وخمسون من الفرسان، فرجعا ببعض النساء والأطفال الذين قاموا بأسرهم، وكمية من الماشية.

فى تلك الآونة، أمر الدوق بهدم الترميمات المقامة بقلعة خوبيليس، ثم حشد الرجال وذهب إلى كاديار، ولم يوقف مسيرته بل مضى ليبيت تلك الليلة فى ياتور. فى ذلك اليوم كشف المسلمون عن وجودهم أعلى جبال بيرتشول، فلم يشأ الدوق أن ينصب المعسكر فى البلدة، لقربها الشديد من الجبل؛ بل أقامه بالأسفل عند النهر، وذلك فى وسط بعض الروابى، التى أمر دوريات الحراسة فيما بعد باحتلالها لكى يمسى المعسكر أكثر تأمينًا. لمّا كان الوقت قد تأخر للغاية، أخذ الأعداء فى الاقتراب، وأشعلوا نيرانًا ضخمة على قمم الجبال؛ وهو ما أجبر جيشنا على قضاء الليلة بأسرها شاهرًا أسلحته، ظنًا منا أنهم يودون شن هجوم ما. كان هؤلاء هم ابن عبو والأربعة آلاف رام التابعين له، إلى جانب الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، وأناس كثيرين يحملون المقاليع والحراب؛ وقد حضر هؤلاء رغبةً منهم فى الإرهاب أكثر من الاشتباك، حيث قالوا لمن نصحهم بالقتال إنه ما من داع لأن يذوقوا ملح بارود الذخيرة فى بنادق المسيحيين، لأنهم هم سيتعبون من السير وسيرحلون عن الأرض رغمًا عن إرادتهم. وقد كانت العناية الإلهية حقًا هى ما حالت دون شنهم للهجمات خلال عدد من تلك الليالى، لأنه كان بمقدورهم التسبب فى خسائر.

غادر الجيش ذلك المعسكر فى صباح يوم الجمعة التالى، فبلغ أوخيخار دون معوقات –وكانت أيضًا مهجورة–، فأقام الجيش داخل بلدة البسيط. هنالك أحضر أحد مسلمى خوبيليس السيد دييغو أوسوريو Diego Osorio، الذى أتى إلى دوق سيسا –بموجب أوامر جلالة الملك– حاملاً رسائل تتعلق بمجريات الحرب والتدابير التى يتعين القيام بها فى شأن الاستسلام المزمع. وكان قد خرج من أورخيبا برفقة خمسة عشر من حملة الدروع التابعين لكتيبة أوسونا لحراسته، ظنًا منه أن الجيش موجود فى خوبيليس، لكن الجيش كان قد غادر المحل منذ ساعة. فلمّا ألفى نفسه على مقربة من البلدة، ورأى الشوارع عامرة بالناس، دلف إليها، فلم يلق الترحيب الذى كان يتوقعه؛ لأنهم لم يكونوا مسيحيين، بل مسلمين هبطوا من الجبال لدى رؤيتهم رحيل جيشنا؛ فتركوه يدخل إلى البلدة، ثم حاصروه هو وحملة الدروع جميعًا، واستولوا منه على الرسائل. فى أعقاب تعذيبه، سلّموه إلى ذلك المسلم –الذى كانت امرأته وإحدى بناته

في الأسر- لحراسته. كان المسلم رجلاً شديد الصلاح، فأحسن إليه، وأبقاه دونما قيود، وقال له إنه إذا أقدم على الرحيل برفقته، فإنه سيحمله إلى جيشنا، على أن يتعهد بمنحه امرأته وابنته.

تعجب السيد دييغو من رؤية تلك الخصال المهذبة في واحد من المسلمين(٢٦)، فوجه إليه الشكر على المعاملة الطيبة التى لقيها منه فى أثناء كونه أسيرًا لديه، ووعده بالوفاء بمطلبه، وبأن يتوسط لدى جلالة الملك من أجل أن يسبغ عليه نعمًا أخرى عديدة. فأجابه المسلم بأنه ليس سجينًا لديه، بل إنه هو الأسير عنده، وإنه يعلم أن لابد له من استرضائه، فى أعقاب اتباعه لتلك الحماقة التى اقترفها المسلمون عندما ثاروا على الأرض التى لم يتمكنوا من المحافظة عليها. وقد وفى الرجل بكلمته، ففى صباح اليوم التالى، حمله إلى جيش دوق سيسا الموجود فى أوخيخار؛ ولمّا كانوا قد بلغوه فى أثناء الليل، فقد توقفوا حتى الصباح، لأن دوريات الحراسة لم تسمح لهم بالدخول إليه. أخبر السيد دييغو أوسوريو الدوق بالمعاملة المهذبة التى لقيها من ذلك المسلم، ورجاه أن يشمله برحمته وعطفه؛ فامتدح الدوق كثيرًا ذلك الصنيع، وقال للرجل بأن يطلب مكافأة، وسيدفع بها إليه عن طيب خاطر. طلب منه الرجل أن يسلمه امرأته وابنته، اللتين أُسرتا فى أثناء الغارة التى شنها السيد لويس دى كوردوبا؛ وأن يمنحه تصريح مرور، لكى يتسنى له الذهاب والمجىء من وإلى المعسكر فى حرية، لأنه ينتوى إطلاق سراح بعض المسيحيين الذين تم أسرهم برفقة السيد دييغو أوسوريو، إلى جانب حمل عدد غفير من الثوار على تسليم أنفسهم ليكونوا تحت رحمة جلالة الملك.

وعد الدوق الرجل بإعطائه امرأته وابنته -اللتين حملتا إلى قلهرّة-، وقام بمنحه تصريح المرور، وبعث به إلى جيش السيد خوان دى أوستريا ببعض التنبيهات. قبل أن يصل الرجل إلى هناك ألقى القبض عليه نفر من المسلمين من أتباع ابن عبو،

---

(٢٦) صورة المسلم فى أدب العصر الذهبى تتراوح بين الإشادة والسخرية. انظر دراستنا "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى"، أعمال مؤتمر الدراسات الموريسكية بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة، تونس، ١٩٩٣. (المراجع)

وحينما عثروا معه على تصريح المرور والرسائل فى صدره، حملوه إلى ابن عبو الذى أمر بشنقه على إحدى أشجار الزيتون، وعقب وفاته جعلوه هدفًا لسهامهم. فى أعقاب تلك الواقعة بفترة ليست بالبعـــيدة، تضرع الحبقى إلى الســـيد خوان دى أوستريا ليمنح الحرية لهاتين السيدتين -وكانتا قريبتين له-، فدفع مائتى دوقية لافتدائهما، وأطلق سـراحهما.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول عودة السيد أنطونيو دى لونا إلى تفقد جبال منتميس، وإقامته معقلين فى كومبيتا ونيرخا.

فى أثناء وقوع تلك الأحداث فى الجيشين، قام جلالة الملك -بعد إلحاح من قبل دوق سوسا Sosa- بإرسال السيد أنطونيو دى لونا -الذى كان قد آوى إلى إويتور تاخار Huétor Tájar، فى أعقاب إجلاء المسلمين من بقاع الشرقية الأربع فى مالقة، وإقامة معاقل بها، نظراً لوجودها على الطريق الذى يربط البشرات وجبل منتميس بالبقاع الأخرى فى منخفض مالقة وسلسلة جبال رُندة- لكى يعاود الدخول من جديد إلى جبل منتوميث. وأن يجتاح الأراضى، وينشئ نقطة منيعة فى كومبيتا، وأن يودع حامية فيها وفى نيرخا، نظراً لكونهما موضعين لهما أهمية بالغة فى تأمين ذلك الساحل ومعبر المنكب. وبعد أن يفرغ من ذلك، يمضى قدماً إلى الساحل، حيث كانت قد وردت تحذيرات حول حشد المسلمين للكثير من المؤن هناك، من أجل مساعدتهم على البقاء وسط وعورة تلك الجبال ريثما تصلهم النجدة من شمال إفريقيا.

من أجل الاضطلاع بتلك الحملة، أمر جلالة الملك المأمورين القضائيين لمدن الجوار أن يحشدوا الرجال من المواضع التابعة لهم، وأن يعودوا للانضمام إلى جلالته، ويكونوا رهن أمره، فى انتظار الأوامر التى سيصدرها دوق سوسا إلى السيد أنطونيو دى لونا. ولتجنب العائق الذى سيمثله اضطرار الجنود إلى الرجوع مرة أخرى، إذا ما لزم الأمر وتجاوزت مدة الحملة عشرة أيام، أُمِرَ السيد بدرو بيردوغو -مورد مالقة- أن يزودهم بالمؤن الضرورية. كان الغرض الذى يطمح إليه دوق سوسا هو إفشال مخطط الأعداء، وإحباط آمالهم فى العودة إلى إثارة المواضع المهجورة، وإجبارها على معاناة الجوع

وويلات الحرب. وكان الدوق يلح فى الطلب على جلالة الملك لكى يجلى كافة الموريسكيين المسالمين من الشرقية ومنخفض مالقة وسلسلة جبال رُندة، وينقلهم إلى بقاع داخلية، للحيلولة دون استعانة الثوار بهم.

قبل السيد أنطونيو دى لونا بتلك الحملة، بيد أنه تخوف من القيام بها برفقة أناس طامعين يفتقرون إلى الانضباط، فطلب إمداده بجنود نظاميين، وقال إنه ليس من الجيد أن يعاود تعريض شرفه وصيته للصدفة، وطالب أيضاً بتزويده بالمؤن فى كل من:مدينة بلش، ونيرخا، والمنكب، ومطريل. قام دوق سيسا بمنحه فرقتين من المشاة -أحدهما تابعة له والأخرى خاصة بدوق ألكالا-، بالإضافة إلى لوائى فرسان تابعين لدوق ميدينا سيدونيا ودوق أركوس؛ كما صدرت الأوامر إلى الموردين لكى يودعوا المؤونة فى الأماكن التى ذكرها. عاد السيد أنطونيو دى لونا للدخول إلى جبل منتميس برفقة تلك القوات إلى جانب الرجال الذين تم حشدهم من المدن، وبعد جهد بسيط تمكن من اجتياح الأرض بعد مناوشات مع المسلمين -الذين كانوا يرومون تلك الجبال كالمتوحشين-، فقتل وأسر نفراً منهم؛ وكذلك فقد بعض الجنود فى بعض الأحايين، ثم شرع فى إقامة النقطة الحصينة فى كومبيتا.

وضع السيد أنطونيو النهاية للحملة بعد أن أرسل ألف رجل لتفقد نهر تشيّار Chillar، وعودتهم بغنائم قليلة وخسائر مماثلة. وقد خلّف القائد أنطونيو بيريث -النائب فى مجلس بلدية بلش- فى معقل كومبيتا مع مائتين من الجنود، كما ترك فى قلعة نيرخا دييغو بيليث دى مندوثا Diego Vélez de Mendoza مع كتيبة أخرى من المشاة. توجه السيد أنطونيو دى لونا إلى مدينة أنتيقيرة، حيث قدم لملاقاته بدرو بيرموديث -قائد المقاتلين الموجودين فى رُندة- لكى يتلقى أوامره حول السبيل إلى إجلاء أهالى الأماكن التى تقع فى تلك المناطق الجبلية، لأنه حينما تم إخبار جلالة الملك بأن بعض تلك المواضع قد أخذت فى التمرد، تراءى لجلالته أن يخرج أهلها منها قبل أن تجاهر بالثورة، وقد عهد صاحب الجلالة إلى السيد أنطونيو دى لونا بتنفيذ تلك المهمة.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول هجوم المسلمين على موكب الإمدادات الذى كان ماركيز فابارا يقوده إلى قلهرّة.

بدأ جيشنا الموجود فى أوخيخار يعانى من نقص المؤن؛ ولمّا لم يكن من المناسب التزود بها من الإمدادات التى بعث بها بدرو بيربدوغو من مدينة مالقة إلى بلدة أدرا عن طريق البحر، فقد أمر دوق سيسا بحشد كافة الأمتعة، وإرسالها برفقة دورية حراسة كثيفة العدد من أجل إحضار المؤونة من قلهرّة. كان هذا هو الطريق الأقصر، لأنه من الممكن الذهاب والعودة عبره فى يوم واحد؛ على الرغم من اتسامه بالوعورة والخطورة، نظراً لوجود قوات العدو فى تلك الناحية، كما أنه كان لزامًا على الموكب المرور بميناء رباح. بيد أنه تم التغلب على تلك المصاعب بالهمة العالية وعزم الرجال، حيث أُسندت المهمة إلى ماركيز فابارا، الذى مُنِحَ ألف من المشاة ومائة من الفرسان لمرافقته. انطلق الماركيز من معسكر أوخيخار فى اليوم السادس عشر من شهر إبريل، قبيل بزوغ الفجر بساعة، فبادر هو بالخروج فى الطليعة مع مائتين من المشاة وأربعين من الفرسان، ثم تبعتهم الأمتعة فيما بعد برفقة بعض الجنود الفرادى المسلحين بالبنادق على الجانبين، بينما ضمت مؤخرة الجيش المشاة التابعين لإشبيلية بالإضافة إلى ستين فارسًا. شرع جيشنا فى ارتقاء الجبل بهذه الطريقة، دون أن ينتبهوا إلى الأعداء أو التضاريس، ومن دون حتى أن يبسطوا سيطرتهم على المواضع ذات الأفضلية من أجل تأمين الأمتعة.

حينما أمعنت الطليعة فى التقدم إلى حد مبالغ فيه، وحال العائق الذى مثلته النساء والمرضى والجرحى دون اللحاق بها، كان لابد أن تصبح هناك مساحة شاسعة من الأراضى تفصل بينهم وبين الأمتعة. وكذلك فإن مؤخرة الجيش لم تكن أقل تهاونًا،

حيث سارت بخطى بطيئة للغاية، وتوقفت من أجل تجميع بعض رؤوس الماشية التى تصادف أن أوقعها الأعداء بين أيديهم، مما تعين معه وجود المسافة ذاتها بينهم وبين الأمتعة. كان ابن عبو يراقب الأوضاع عن كثب، وحينما شهد خروج كل تلك الأمتعة دفعةً واحدةً من معسكرنا، ولم يكن يدرى الوجهة التى ستقصدها، أمر القائد العربى Alarabi -الذى كان يترأس تلك الجبهة- أن يتبعها. اصطحب ذلك المسلم خمسمائة رجل، ومعهم الكثير من المحاريث، وقسّمهم إلى ثلاث سرايا: الأولى -التى كان يترأسها بنفسه- تضم مائة من حملة البنادق، والثانية أوكل قيادتها إلى مواطن من أوخيخار يدعى بيثينى Piceni وكان بها مائتا رجل، أما الثالثة فعهد بها إلى مارتيل Martel (de Cenete) -أحد أهالى زناتة[٢٧]. أصدر العربى أوامره إلى السريتين لكى تقوم إحداهما -فى أثناء إغارته هو على الأمتعة- بالهجوم على مؤخرة الجيش من الأمام، بينما تتولى الثانية الانقضاض على بقية الطليعة بحيث تقف حائلاً بينها وبين الأمتعة.

بمقتضى هذه الخطة قام القادة الثلاثة بنصب ثلاثة كمائن فى مواضع تتيح لهم التخفى جيداً، وتركوا مقدمة الجيش تمر؛ وعندما أضحى موكب الإمدادات فى أكثر أجزاء الطريق ضيقاً، وثب عليه العربى مع جنوده المائة المسلحين بالبنادق بعد أن قسمهم إلى ثلاث فرق. أخذ هو على عاتقه الهجوم على الأمتعة مع أربعين من حملة البنادق، لتتبعه بعدها فى الهجوم الفرقة الثانية ثم الثالثة؛ فلمّا ألقى مقاومة ضئيلة، لأن حملة البنادق -الذين لم يعيروا الحمل الذى يرافقونه سوى قدر قليل من الانتباه- كانوا قد انفصلوا عن الركب بحثاً عما يحقق لهم أى منفعة. اخترق العربى الأمتعة عند المنتصف، مما نجم عنه إرباك سائقى العربات والمرضى والجرحى. فى ذات الوقت أغار البيثينى على فرسان مؤخرة الجيش، وألحق بهم الهزيمة، ليؤدى ذلك إلى هزيمة المشاة، وقد سلك مارتيل النهج ذاته. وقد تحلى هذا وذاك بالسرعة الفائقة والصمت التام عند شن الهجوم، حتى بديا وكأنهما جنديان لهما باع طويل فى الجندية، وليسا مسلمين. أخذ البيثينى يلاحق جنود المؤخرة حتى بدا وكأن رجالنا يلوذون بالفرار. وقد حذا

---

(٢٧) فى بعض الأحيان يصعب أن نعرف هل لقب "زناتى" مثلاً لقب عائلى أم يدل على اسم مدينة الشخص. (المراجع)

المارتيل حنوه، ليقوما -فيما بينهما- بالاستمرار فى مطاردتهم. تولى العربى قتل سائقى العربات والمرضى وتخريب الأمتعة، وقام الجميع فى أن واحد بالقضاء على الجنود وحملة الدروع. وصلت الأسلحة إلى ماركيز فابارا فى وقت متأخر للغاية نظراً للصمت والخوف الشديد الذى انتاب الجنود، فلم يتمكن الماركيز من تدارك الضرر، رغماً عن سعيه -مع فرقة تضم عشرين فارساً وعدداً من حملة البنادق- للوصول فى الوقت المناسب؛ بيد أن وعورة الطريق، والأمتعة الملقاة، ومعوقات أخرى موجودة بالطريق، حالت دون تمكنه من إدراك ذلك. وفى نهاية الأمر واصل مسيرته -والمسلمون يلاحقونه من الخلف- حتى بلغ نقطة قريبة من قلهرّة.

توفى فى ذلك اليوم ما يقرب من ثمانمائة مسيحى، كان من بينهم ستمائة من المرضى والجرحى الذين كانوا فى طريقهم إلى وادى آش لتلقى العلاج. استولى المسلمون على ستمائة موريسكية كن أسيرات لدينا، بالإضافة إلى ثلاثمائة من الأمتعة المنتقاة بعد أن خربوا العديد من الأمتعة الأخرى، وأسروا خمسة عشر رجلاً؛ وذلك دون أن يفقدوا رجلاً واحداً فى صفوفهم. سادت فوضى عارمة بين سائقى العربات والجنود حتى أنهم جميعًا هربوا من هناك، ولدى وصولهم إلى قلهرّة لاذ الجانب الأكبر منهم بالفرار؛ وهكذا لم يعد هناك من يرجع بموكب الإمدادات إلى المعسكر. وصلت أنباء تلك الحادثة إلى أوخيخار في الليلة ذاتها، لأن ماركيز فابارا ما أن بلغ قلهرّة حتى بعث بالقائد لاثارو مورينو دى ليون مع ستة من الفرسان لإحاطة الدوق علمًا بما جرى. سلك القائد نفس الطرق مروراً على الأجساد الميتة، ووصل قبيل الفجر حاملاً أنباء تلك الكارثة، التى أسف دوق سيسا لها كثيراً، فلمّا ألفى الدوق نفسه من دون أمتعة أو مؤن، عزم على الذهاب إلى بالور لكى يفهم ما جرى من زاوية أكثر قرباً، ليقاتل العدو إذا ما جسر على انتظار قدومه، وكذلك من أجل إرسال الأمتعة التى يتسنى له تجميعها لإحضار المؤن، أو أن يذهب هو للاضطلاع بتلك المهمة؛ حيث كان هناك العديد من المرضى بين رجاله، كما كان ينقصه الرجال الذين رافقوا ماركيز فابارا، فلم يتبق بحوزته سوى عدد قليل لا يتيح له إرساله لتولى تلك المسألة.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول ذهاب دوق سيسا لنصب معسكره فى بلدة أدرا.

فى صباح اليوم التالى -الموافق السابع عشر من إبريل- انطلق دوق سيسا من أوخيخار يصحبه الجيش بأسره، بعد أن انتظمت صفوفه، كل فى موقعه، وتوجه صوب بالور وهو يشعر بأسى شديد لرؤيته التخاذل الذى أظهره رجالنا؛ فألفى المكان خاويًا، لأن المسلمين كانوا قد لاذوا بالجبال. فبعث من هناك بجواسيس إلى وادى آش وغرناطة، ليحض سيادة الرئيس بدرو دى ديثا على أن يأمر ماركيز فابارا بأن يعاود تجميع الرجال، وأن يحشد رجالاً آخرين، ثم يحضر إليه حيثما يكون. عمد الدوق خلال تلك الليلة إلى أن يبيت الرجال جميعًا شاهرين أسلحتهم، كما أولى عنايةً بالغةً لدوريات المراقبة ونقاط الحراسة فى منطقة الجبل، تحسبًا لشن الأعداء أى هجوم فى أثناء الليل. وكان هؤلاء قد أطلقوا السواقى، وأغرقوا كلاً من الأراضى التى تُركِت بورًا لإراحتها، والأراضى المزروعة المحيطة بالمكان بالمياه؛ وباتوا يراقبون الأوضاع عن كثب عند سفح جبل شلير.

قص علينا أحد المسلمين الذى كان فى صحبة ابن عبو فى ذلك اليوم، أنه إبان سير رجالنا باتجاه بالور، كان يشاهد الجنود الذين يصعدون إلى أعلى تلك المرتفعات من قمة أحد الجبال؛ فلمّا بدا له أنهم منهكون للغاية، قال إن هذا المشهد بديع، وإن النافذة التى يطل منها عليهم فى أثناء مرورهم جيدة جداً؛ كما أنه كان يعتقد أن بإمكانه هزيمتهم بمجرد النظر دون شن أى هجوم آخر. قرر دوق سيسا الرجوع إلى بلدة أدرا، التى كان يعلم أن بها احتياطيًا من المؤن، وذلك بعد أن أخذ فى اعتباره الضرر الذى يمكن أن يتعرض له لو غادر قلهرّة. لأن عقد الجيش كان ينفرط من بين

يديه، كما أن الأعداء الذين يراقبون أحواله من خارج البشرات سيفرضون سيطرتهم على الموانئ؛ وسيمسي من الصعوبة بمكان أن يتسنى له النيل منهم. علاوةً على ذلك، فإنه لم يكن هناك نقص فيمن تراءى لهم -من المسلمين أو المسيحيين- أنه سيمنى بالهزيمة وسيتم القضاء عليه.

على ضوء تلك الأمور، قام دوق سيسا بجمع الفرسان والقادة للتشاور، وكان هناك البعض ممن يحملون آراءً معارضة، بيد أن السيد خوان دى مندوثا سارمينتو تصدى لاعتراضاتهم، وقال إن الشيء الوحيد الذى سنجنيه من الذهاب إلى قلهرّة هو فقد سمعة الجيش؛ لأنه من المؤكد أن الجنود ما أن يبرحوا البشرات، سيقدمون على فعل ما قاموا به فى أثناء انضمامهم لجيش ماركيز بلش. عندئذ أخذ الدوق بأفضل نصيحة، وبات يقنع القادة والجنود، ويوصيهم بالامتثال للأوامر وعدم الانفصال عن الركب، ثم قفل عائداً إلى أوخيخار. بمجرد مشاهدة المسلمين للطريق الذى سلكه الجيش، أسرعوا بالنزول من الجبل، وفى أعقاب عبور جنود المقدمة والوسط فى جيشنا للنهر، انقضوا على مؤخرته، واشتبكوا مع الجنود لفترة تزيد على ثلاث ساعات بغية تعطيل الجيش. كان دوق سيسا قد وصل إلى صومعة القديس سيباستيان الكائنة بالقرب من أوخيخار عندما أحس بإطلاق النفير، فأمر بإيقاف المسيرة وهرع لتدعيم مؤخرة الجيش. لمّا كانت الاشتباكات تدور فى موضع لا يتيح للفرسان حرية الحركة، عمد إلى الهجوم على الأعداء بواسطة ذراعين من الجنود المسلحين بالبنادق، حيث انتظرا إلى أن أعطاهم الأعداء ظهورهم، وردا لهم جزءاً من الأضرار التى ألحقوها بنا عند ميناء رباح؛ علاوةً على ذلك فقد استولوا على شحنة من العملات كانت قد ضلت طريقها.

وصلت القوات إلى أوخيخار، ووجدت أن بعض الجنود وسائقى العربات الذين كانوا مرضى بالمشفى -الذى كان مقاماً فى أحد المساجد التى كان المسلمون قد خصصوها من جديد لإقامة صلواتهم- قد قضوا. كما عثروا على بعض المؤن المسروقة التى تم تدميرها، وكان كاتب الحسابات قد أودعها فى مخزن الذخيرة نظراً لعدم توفر أجولة تمكنه من حملها. كانت تلك الأفعال قد قام بها نفر من المسلمين الذين يجوبون تلك التلال، ممن هبطوا إلى منازل البلدة فى أعقاب رؤيتهم لخروج الجيش. أسف دوق

سيسا كثيراً لذلك الأمر، ووبخ بشدة القادة والمندوبين الذين كانوا مكلفين بحشد المعسكر فى ذلك اليوم؛ ثم مضى إلى لوكاينينا دون أن يتوقف هناك، بعد أن أرسل قوات فى المقدمة لاستطلاع الطريق الذى يتعين عليه السير فيه. وحينما أضحى على مقربة من لوكاينينا، وردت إليه أنباء عن احتلال الأعداء للممر، إلا أن ذلك لم يحل دون استكمال مسيرته والمضى قدماً.

عندما شهد المسلمون التصميم الذى تحلى به الدوق، تركوا الموضع الذى كانوا قد بسطوا سيطرتهم عليه، وأخذوا يتراجعون إلى داريّكال. مضى الجيش إلى لوكاينينا، وأضرموا النيران فى منازل البلدة، على النسق الذى انتهجوه فى شتى المواضع التى حلوا بها. ذهب الجيش ليقضى ليلته تلك عند بئر يقع على مسافة ثلاثة فراسخ ونصف من أدرا، وقد بلغه الرجال وهم منهكون ومبللون ويكادون يموتون جوعاً، إلى الحد الذى دفع البعض إلى شراء الرغيف الواحد مقابل ست عملات و النبيذ مقابل دوقية ونصف –ليس انطلاقاً من رغبتهم فى جزل العطاء. شن الأعداء بعض الهجمات ناحية بيرخا، بيد أن الدوق أمر بفتح نيران المدفعية صوبهم، ليتراجعوا فيما بعد. فى صباح يوم الأربعاء التالى، سار الجيش إلى بيرخا بينما الرجال يعانون الجوع الشديد، على نحو لم يقووا معه على مواصلة السير –على الرغم من سيرهم فى أراضى منبسطة– وسقط الكثيرون منهم مغشياً عليهم.

مر الدوق بالبلدة عند انتصاف النهار، وكان دائماً ما يضع الأعداء تحت ناظريه، ومضى إلى آبار المياه التابعة لأدرا على شواطئ البحر، فلمّا باشر صعود المرتفع الذى ينحدر باتجاه البلدة، وجد إيرناندو دى نارباايث–قائد الحصن– الذى كان قد خرج لاستقباله فى خمسين من الفرسان. قضى الجيش ليلته تلك فى البساتين الموجودة خارج الأسوار، وهنالك أمر الدوق بنصب الخيام، لأنه لم يكن يرغب فى الدخول إلى البلدة. كان الجوع الذى يكابده الرجال والحيوانات قاسياً، حتى أنه فى غضون ساعة لم يبق شىء أخضر فى البساتين والحقول إلا وكانوا قد قطعوه. لكنهم تداركوا ذلك الأمر فى اليوم التالى، وذلك عن طريق الكعك والدقيق الموجودين بمخازن جلالة الملك من أجل ذلك الغرض.

الفصل السادس والعشرون

يتناول ما دار في أدرا إبان وجود جيش دوق سيسا في ذلك المقر، والتدابير التي تم اتخاذها من أجل الإغارة على كاستيل دي فيرّو.

في أعقاب وصول دوق سيسا إلى أدرا، استطلع مع سلاح الفرسان طاغات داليّاس وبيرخا وجانبًا من جبل غادور، وذلك في المناطق التي كان يعتقد بوجود المسلمين بها. رجع الدوق إلى المعسكر ببعض الغنائم، ومكث في انتظار وصول السفن التابعة للسيد سانشو دي ليبا، من أجل أن يصعد على متنها ويتوجه للإغارة على كاستيل دي فيرّو، التي كان يضعها نصب عينيه، وكانت آمال المسلمين معقودة عليها. تقع تلك القلعة على الساحل الموجود في الموضع الذي تشغله طاعة أورخيبا، وكانت تابعة لدوق سيسا. كان أحد المسيحيين الطالحين -المولود لإحدى الموريسكيات- قد باعها إلى الحسين قائد جبهة مطريل مقابل أربعمائة دوقية؛ ومن أجل أن يخرج سالمًا غانمًا كان قد قتل صاحب القلعة غدرًا، أو -كما روى البعض- أن المسلمين كانوا قد أوقعوه في المكائد التي دبروها له. كانت دوق سيسا تراوده رغبةٌ عارمةٌ في استردادها قبل أن يقوم المسلمون بتحصينها أكثر مما هي عليه. كان الدوق قد طلب السفن من أجل ذلك الغرض، لأن الذهاب برًا يستلزم قطع سبعة فراسخ من الطرق الوعرة، وهو ما كان سيمثل صعوبةً بالغةً في اقتياد العربات التي تقل أسلحة المدفعية.

في تلك الآونة وصلت إلى سواحل داليّاس ثلاث سفن محملة بالقمح، والأرز، والأسلحة، والذخيرة التي تم جلبها من شمال إفريقيا. وفي أعقاب رسو القادة الأتراك على الشاطئ، تنامى إلى علمهم أن الثوار يعقدون اتفاقيات من أجل تسليم أنفسهم، فكفروا بقضيتهم، وأرادوا أن يعاودوا الصعود على متن السفن، والعودة إلى أرضهم.

بيد أنهم لم يتسن لهم القيام بذلك الأمر سالمين غانمين، حيث فقدوا القدر الأكبر من الدقيق ومن الأشياء الأخرى التى كانوا قد وضعوها بالخارج، لأن أبراج المراقبة التابعة لنا اكتشفت وجودهم؛ وقد بادر سلاح الفرسان بالتوجه إليهم على نحو لم يتح لهم الفرصة سوى لتحميل الرجال والإقلاع من الشاطئ. استولت قواتنا منهم -بين أشياء أخرى- على جراب مملوء بالكتب العربية، وكان يحوى بضع المصاحف بالإضافة إلى كتاب يدعى "توجيهات الحرب وخططها" Instrucción de la guerra y ardides della، وكان بعض فقهاء الجزائر قد بعثوا بها -على ما يبدو- إلى المسلمين؛ وقد كان تحت عنوان "أحباس لصالح الأندلسيين" Habices para los andaluces، وكأنها كانت مرسلة إليهم على سبيل الصدقة.

حدثت تلك الواقعة فى اليوم السادس والعشرين من شهر إبريل، وقد رست على الشاطئ فى تلك الليلة ذاتها سبع مراكب أخرى كان يستقلها القائد حسين -شقيق كاراكاش- مع نجدة مؤلفة من أربعمائة من الأتراك وإمدادات كثيرة من الأسلحة والذخائر؛ فلمّا تم تنبيهه إلى الاتفاقيات التى يسعى مسلمو تلك الأراضى إلى عقدها، رجع على عقبيه إلى مدينة الجزائر. كان دوق سيسا يمتلك فى حوزته منذ يومين المرسوم الخاص بالاستسلام والأوامر التى أصدرها السيد خوان دى أوستريا بصدد قبول المسلمين الذين يحضرون لتسليم أنفسهم؛ وكان قد حمل الأب كاستيّو على استخراج نسخ منها جميعًا مترجمة إلى اللغة العربية، وبعث بها إلى بقاع شتى فى البشرات برفقة موريسكى يدعى الثامبورى Zambori، وذلك بغية توزيعها على سائر الطاعات فى آن واحد. وعندما تم نشرها فى أدرا فى اليوم السابع والعشرين من شهر إبريل، غادر جيشه فى ذات اليوم ما يربو على مائة جندى، قائلين إن السلام قد عم الأرجاء. كان من الممكن أن يغادر الجزء الغالب من الجنود، لو لم تصل السفن فى تلك الليلة، ويستقلها الجنود فى اليوم التالى للتوجه صوب كاستيل دى فيرّو، وهو الموضع الذى سنعاود الحديث عنهم فيه عندما يحين الوقت لذلك. لنذهب الآن لتناول ما كان يجرى فى شأن الاستسلام.

الفصل السابع والعشرون

يتناول الكيفية التى راسل بها السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس ابن عبو لكى يسلم نفسه، والرد الذى أجابه به المسلم.

يدرك المرء من خلال التدبر في أحداث ذلك التاريخ مدى الإصرار الذى تحلى به السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وذلك فى أثناء وساطته لدى جلالة الملك ولدى أعضاء مجلسه الملكى لصالح موريسكيي مملكة غرناطة من غير المذنبين، الذين دفعهم آخرون إلى اعتناق الثورة رغمًا عنهم؛ وعرضه بأن يأخذ على عاتقه مهمة حملهم على الاستسلام. من أجل أن يضطلع السيد ألونسو بتلك المسألة، كان جلالة الملك قد أمر السيد خوان دى أوستريا أن يبعث به مع نفر من المشاة والفرسان إلى خابينا على غرار الحامية، كما قام دوق سيسا بتزويده بالأمور التى ذكرناها آنفًا. كان السيد ألونسو دى غرانادا قد نفذ بعض الغارات فى تلك الأيام، كما قام بمكاتبة نفر من قادة الثوار من أصدقائه ومعارفه، لإقناعهم بالتخلى عن حمل السلاح وأن يعترفوا بالأخطاء الفادحة التى أقدموا عليها، ويقبلوا العفو الذى أنعم به عليهم جلالة الملك. لما بدأ الأمر يسلك المسار الصحيح، كتب السيد ألونسو رسالة إلى ابن عبو قبيل توجهه إلى المعسكر فى يوم الثامن عشر من شهر إبريل من هذا العام[٢٨]، وكان فحواها على النحو التالى:

---

(٢٨) كان السيد خوان دى أوستريا قد استدعى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس من أجل الاضطلاع بمهمة إخضاع الثوار. (المترجمة)

رسالة من السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لابن عبو

"السيد ابن عبو: لقد راعنى للغاية أن يقدم شخص مثلكم يتسم برجاحة العقل وينتمى إلى سلالة عريقة على سلك طريق يقوده إلى الهلاك المحقق -سواءً للروح أو النفس- إلى جانب إبادة تلك الأراضى قاطبةً وأهلها. ولّما كنت آسى كثيراً لذلك الأمر، وأرغب فى تحقيق صالحكم وصالح الجميع، وتدارك تلك المسألة، فإنى أناشدكم باسم الرحمة أن تبعثوا إلىّ بأشخاص محل ثقة لتباحث تلك الأمور معهم. وأنا أتعهد كمسيحى وكفارس بضمان سلامتهم، لكى يتسنى لهم الذهاب والإياب فى حرية من وإلى خابينا حيث سيجدوننى، لأننى أود أن أبحث معهم شئونًا ذات أهمية قصوى بالنسبة لخدمة مولانا الرب وجلالة الملك وتحقيق النفع للناس أجمعين. صدقنى حينما أخبرك أنى أقول الحقيقة دون أى مكر أو سوء نية، وأنا فى انتظار جوابكم علىّ، والذى سيرد لاحقًا. أما حامل هذه الرسالة، فآمل من أجلى أن يلقى كل معاملة طيبة، لأن ما دفعنى لإرساله هى المنفعة التى ابتغى تحققها للجميع، وأنا لدّى رغبة عارمة فى أن نتقابل للتباحث فى هذه الأمور.

خابينا فى اليوم الثامن من شهر إبريل".

علاوةً على الخطاب، قام السيد ألونسو بمنح الرسول تصريح مرور، يحض فيه السيد غوتيرّى دى كوردوبا -حاكم لاس ألبانيوبلاس- أن يسمح له بالذهاب والإياب فى حرية، لأنه يتوجه للقيام بمهام ضرورية لصالح جلالة الملك. تسلم ابن عبو تلك الرسالة فى ميثينا دى بومبارون، بينما كان دوق سيسا قد بات بالفعل فى أدرا. وقد أجابه -بناءً على المشورة التى أسداها إليه إيرناندو الحبقى، الذى كان موجوداً آنذاك- على النحو التالى:

جواب ابن عبو

"السيد ألونسو: فهمت من كتابكم مدى حرصكم المحمود على تهدئة الأجواء فى هذه المملكة، وتحقيق مصلحة ملكنا، من منطلق كونكم شخصًا مسيحيًا صالحًا، وهو ما يلزمكم بالسعى لمعالجة الأوضاع من أجل وضع نهاية لكل تلك الشرور

التى ألمت بالمسيحيين وبأهالى تلك المملكة، وإرساء السلام والطمأنينة بها. أما ما تقولون حول القلق الذى انتابكم إزاء تعريض روحى وجسدى لذلك الخطر العارم، فإن الله أدرى بالأصلح من أجل النفس، وأما الجسد، فنحن نعلم أن الملك فيليبى بالغ القوة والنفوذ. بيد أنه يجب أن يكون مفهومًا أنه بمقدورنا تكبيده خسائر فادحة تفوق بكثير ما تسببنا له فيها من قبل؛ فأهل هذه المملكة لم يعد لديهم ما يخسرون، فيما يتعلق بما قد يحل بهم الآن فإنهم قد تجرعوه من قبل. أما ما قد آل وسيؤول إليه هؤلاء وأولئك، فإن تبعته تقع على من لم يتداركوه فى الوقت المناسب، ظنًا منهم أن ما تطرح عليهم هى آراء تافهة، وليست صادرة من أشخاص نبلاء أحاطوهم علمًا بما يقتضيه صالح الرب وصالحهم.

ليس هناك سبب يدعو إلى إلقاء اللوم علىّ أو على أهالى هذه المملكة فى هذا الصدد، لأن الداعى وراء تلك النيران كان مستشارو السوء، وهؤلاء هم من ينبغى تحميلهم الذنب، فكم أصدروا أوامرهم للقيام بالعديد من الفواحش حتى أن أهالى هذه المملكة لم يعودوا يطيقون الحياة! وكيف أضحى بين المواطنين رجال يفضلون تجرع الموت على مكابدة هذا القدر الكبير من المآسى والمظالم التى كانوا يقاسونها. كان هذا هو المسبب لكل تلك الشرور والمضار الحادثة، وكل تلك الميتات التى تعرضت لها مخلوقات بريئة. ولهذا السبب لا يجب إلقاء اللوم على أى من الأهالى، وإنما على المتسببين فى تلك الوقائع، لأنه لو وقع الضير الذى تعرض له هؤلاء الأفراد على أرجح الرجال عقلاً فى المسيحيين قاطبة، لم يكن ليكتفى بفعل ما صنعوه، بل كان سيقدم على اقتراف آثام تفوقها بكثير. وفيما يتعلق بما تقولونه حول إرسالى لرجلين موضع ثقة كبيرة إلى خايينا بمقتضى الأمان والعهد الذى قطعتموه على أنفسكم، فأنا أدرك جيداً أنك كفارس ملتزم به، لكن هناك من سيدينون بآراء مختلفة، وسيقدمون على أفعال مغايرة، لذا فلن يجسرا على الذهاب حتى يعهد إليهما الملك أو السيد خوان دى أوستريا بذلك.

لقد راسل السيد إيرناندو دى باريّادا إيرناندو الحبقى -قائد هذه الأراضى الثائرة- خلال تلك الأيام المنصرمة، يطلب منه الاجتماع في وادى آش، لكى يتباحثا سويًا السبيل إلى إخماد تلك النار. وقد توجه الحبقى من هنا إلى نهر المنصورة، حيث كاتبه هناك أيضًا السيد فرانثيسكو دى مولينا والتقى به، وفيما بعد ذهب للتحاور معه السيد فرانثيسكو دى كوردوبا وفرسان آخرون؛ وقد حضر الحبقى لموافاتنا بكل ما جرى، بوصفه رجلاً مخولاً من قبلنا لتولى تلك المهام. إذا ما رغبتم فى الالتقاء به، فعليكم إرسال الأمان من جلالة الملك له، ولمن سيذهبون برفقته من جانبنا. لأنه من جهتنا، نحن نتعهد بسلامتكم وسلامة من يصحبكم. من أجل تباحث ذلك الأمر، وتحقيق أهدافه المرجوة، فقد تراءى لنا أنه يمكن التفاوض عن طريق وادى آش، لأن العجلة قد بدأت تدور هناك وبلغت مراحل جيدة. فإن لم يكن ذلك متاحًا، فبمقدوركم الاجتماع به فى أورخيبا، لأنه شخص ستسعدون بمقابلته والتفاوض معه فى أى شأن. كتبت الرسالة في البشرات بتاريخ الثانى والعشرين من شهر إبريل من عام ١٥٧٠.
مولاى عبد الله بن عبو".

الفصل الثامن والعشرون

يتناول التقدم الذى أحرزه السيد خوان دى أوستريا منذ مغادرته سانتا فى وحتى إقامته فى بادوليس الكائنة فى أندرش، والكيفية التى تابع بها مفاوضات استسلام الثوار.

فى أعقاب إذاعة المرسوم، واتخاذ تدابير أخرى فى المعسكر القائم فى سانتا فى، مضى السيد خوان دى أوستريا مع جيشه إلى تيركي؛ وذلك بغية تضييق الخناق على المسلمين وأيضًا من أجل حملهم على الاستسلام. فلمّا وردت إلى السيد خوان أنباء حول وجود بعض المسلمين والأتراك المنتمين إلى شمال إفريقيا فى فينيكس برفقة أهالى تلك الأراضى، وأنهم يلحقون أضرارًا بنواحى ألمرية، أرسل فى مواجهتهم كلاً من: خوردان دى بالديس Jordan de Valdés فى ألفين من المشاة، وتيّو غونثاليث دى أغيلار مع المائة رمّاح التابعين لإيثيخا. وقد أمرهما بالإغارة على المحل قبيل بزوغ الفجر، والسعى لنحرهم، لبث الخوف فى نفوس الآخرين وجعلهم يبادرون بالاستماع إلى النصح السديد. انطلق القائدان من المعسكر مع حلول الليل، وساروا طوال الليل، وبلغوا البلدة فى ساعة كانت ستتيح لهم إحداث الأثر المرجو، لولا انتباه أبراج المراقبة ودوريات الحراسة التابعة للمسلمين، الذين استشعروا وجودهم وهرعوا لدق ناقوس الإنذار. وهكذا فإنه عند وصول قواتنا إلى المكان، ألفوا المسلمين يصعدون أعلى الجبل، ونساءهم تسير أمامهم وتحث الخطى قدر المستطاع. أخذ الفرسان فى مطاردتهم، واشتبكوا معهم لبرهة من الوقت، إلى أن أغار عليهم الجنود المسلحون بالبنادق، فهزموهم وقتلوهم. وقد توفى قرابة المائة مسلم وتم أسر أربعمائة من النساء.

تراءى للقائدين أنه ليس من المناسب التوغل أكثر فى الجبل، لأن الأعداء كانوا يسيطرون على الأراضى ويعيدون تشكيل صفوفهم؛ فرجعوا على أعقابهم إلى البلدة، ودلفوا إليها، وقاموا بنهبها. وقد رجعوا إلى بلدة تيركى فى وقت متأخر للغاية من ذلك اليوم ذاته، محملين بالغنائم، ومعهم ألف من رؤوس الماشية التى تسنى لهم جمعها فى عجالة. وصل السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى ذلك المعسكر، وكان السيد خوان دى أوستريا قد استدعاه -كما ذكرنا آنفًا[٢٩]- من أجل الاضطلاع بمهمة حمل الثوار على الاستسلام. وحينما طالع السيد خوان رد ابن عبو على رسالة السيد ألونسو، أمره بمواصلة الحوار الذى كان قد بدأه معه، وأن يعاود مكاتبته فى ذلك الصدد، فبعث إليه أحد الموريسكيين برسالة أخرى، يخبره فيها أنه وفقًا لما كان قد أرسله إليه فى الأيام المنصرمة، وانطلاقًا من رغبته فى تفادى الخراب العظيم الذى سيحل بأهالى تلك الأراضى، فإنه قد بادر فى عجالة بالتضرع إلى جلالة الملك لكى يسبغ عليهم عفوه؛ لإدراكه مدى الرغبة العارمة التى تراودهم من أجل الخضوع لخدمته، ووضع أنفسهم بين يديه الملكيتين.

كما أنه قد حضر إلى تيركى من أجل تحقيق ذلك الغرض -كما تعهد إليه آنفًا-، وهو يود الالتقاء به هو والحبقى وكافة الأشخاص الذين يرغب فى مقابلته إياهم، وفى المحل الذى يحدده. فبعد أن قام من جانبه بتفويت العديد من الفرص، حتى لم يبق هناك سوى ذلك السبيل لتفادى ذلك الموت الجماعى، لم يسع السيد خوان دى أوستريا سوى أن يظهر السرعة اللازمة لحسم الأمر من كافة النواحى فى حزم شديد. لذا فمن الأحرى أن يغتنم تلك الفرصة الثمينة، لأنه على الرغم من إشهار خوان دى أوستريا لسيفه فى يده، فإنه يود أيضًا أن يفيد الموريسكيون من العفو الذى أسبغه عليهم صاحب الجلالة، على النحو الذى شهدوه فى المراسيم التى تم إذاعتها. هذا ويتعين عليهم تثمين ذلك الفضل والمنة المتفردين وقبولهما فى سرور. وليعلموا أن الفضل الأكبر فى سلك الأمور لذلك المنحى يرجع إلى تدخل السيد خوان دى أوستريا، إضافةً إلى

---

(٢٩) انظر الفصل السابق. (المترجمة)

العرض الذى تقدم به هو بالنيابة عن مواطنى الأمة الموريسكية قاطبةً، لثقته فى ما لمسه فيهم من إبداء الندم. وهو ينبههم فى الوقت ذاته إلى أن المرسوم الذى تم الإعلان عنه لم يكن يرمى إلى إرجاء الحرب ساعةً واحدةً، لكنه يستهدف أولئك الذين يتوجهون لتسليم أنفسهم فى غضون المهلة المنصوص عليها فيه. وأن هؤلاء الأشخاص -وإن كانوا قادة أو رؤساء أو زعماء للثوار- فإن جلالة الملك سيشملهم فى كنفه، ولن يسمح بأن ينالهم أذى أو ضير. كما أنه على ابن عبو أن يتيقن أن ما ورد فى المرسوم واجب النفاذ، لأنه صادر عن السيد خوان دى أوستريا بالنيابة عن جلالة الملك، مما يضفى حصانة لآليات الالتزام بها. وحتى يتسنى له إدراك تلك الحقيقة على نحو أفضل، ويعى مدى الوضوح والرفق اللذين يتعامل بهما السيد خوان دى أوستريا مع هذا الشأن، فإنه يسعده أن يلتقى به وبأشخاص آخرين محل ثقة ممن يمكنهم إشباع رغبته والتحقق من ذلك.

قال السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس كل تلك الأشياء لأن ابن عبو والمرافقين له كانوا قد فهموا المرسوم بطريقة مختلفة، وكان الحبقى قد راسل السيد إيرناندو دى باراّداس فى هذا الصدد، ظنًا منه أنه قد تم وقف الحرب على جميع الجبهات فى غضون تسليم الثوار لأنفسهم؛ كما أن المرسوم بدا وكأنه لا يؤمّن القادة. وكذلك فقد كتب الحبقى أن أهالى البشرات، حينما أدركوا أنه سوف يتم إجلاء الموريسكيين من مدينتى وادى آش وبسطة اللتين لم تتبنيا الثورة، صُدِموا واستنكروا الأمر. وقد قام السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس باسترضائهم فى ذلك الخطاب، مطالبًا إياهم بتفهم الغيرة المحمودة التى دفعت جلالة الملك للقيام بذلك التصرف، وأن يفطنوا أنه لا يهدف سوى إلى إبعادهم عن المضايقات والمعاملات السيئة من قبل المحاربين، والتى لا يمكن تجنبها أو مكابدتها. كما أنهم لن يبتعدوا كثيرًا عن ديارهم، إلى الحد الذى يحول دون عودتهم إليها فى أعقاب الانتهاء من تلك القضية، مشمولين بالمن التى سينعم عليهم بها جلالة الملك. وهو قد تضرع إلى السيد خوان دى أوستريا من أجل الإبقاء على الجيش فى ذلك المعسكر لبعض الوقت حتى تطبيق ذلك القرار، وقد أجابه إلى طلبه وسوف يستبقيه طوال ستة أيام. بناء على ما تقدم، فإنه يدعوه إلى إرسال الأشخاص

الذين سيلتقون به فى إطار من الصراحة والوضوح اللذين يستلزمهما الوضع، فهو قد أدرك الرغبة المتوفرة لدى جلالة الملك، ولا ينبغى أن يدع مجالاً لإغلاق أبواب رحمته من جميع الأوجه.

فى تلك الأيام عاد السيد إيرناندو دى باراداس إلى الالتقاء بالحبقى فى غابة القسطل الموجودة فى لانتيرا، وأخبره بأن مسألة استسلام الثوار تسير على ما يرام، وطالبه أن يرجو السيد خوان دى أوستريا -نيابةً عنه- أن يأمر بعدم إجلاء موريسكيى وادى آش إلى البقاع الداخلية، حيث تنامى إلى علمه أنه قد تم حبسهم داخل الكنائس بغية ترحيلهم إلى قشتالة؛ كما عرض أن يأخذ هو على عاتقه تلك المهمة، وذلك على نحو يحمل سائر أهالى البشرات على تسليم أسلحتهم، وإخضاع أنفسهم إلى رحمة جلالة الملك، على أن يشمل الأمر ابن عبو أيضًا. أما السيد خوان دى أوستريا، فعلى الرغم من إدراكه أن الأمر لا يعدو كونه مداولات من قبل الموريسكيين أنفسهم للحيلولة دون إخراجهم من ديارهم، فقد أصدر أوامره بالإبقاء عليهم ريثما يتم اتخاذ تدابير أخرى، وذلك انطلاقًا من رغبته فى تقويض المعوقات؛ على الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يطالبون منذ عدة أيام بأن يُحدد لهم المكان الذى يستطيعون الذهاب إليه خارج مملكة غرناطة، حتى يمسوا بمأمن من ويلات الحرب.

لمّا كان لزامًا أن يتوجه نفر من الفرسان من جانبنا للالتقاء بالحبقى و القادة المسلمين الذين سيحضرون لبحث مفاوضات الاستسلام، فقد أمر السيد خوان بمجىء كل من: السيد خوان إنريكيث من بسطة، والسيد ألونسو حابس بينيغاس من المرية، والسيد إيرناندو دى باراداس من وادى آش؛ وقد أمرهم وعهد إليهم بالاضطلاع بتلك المهمة معًا إلى جانب السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، ثم انطلق من تيركى يرافقه الجيش بأكمله فى يوم الثلاثين من شهر إبريل. أقام الجيش خلال ذلك اليوم فى موضع إنستينثيون، ليمضى فى اليوم التالى إلى مسيل كانياخار؛ وهناك قدم إليه أحد المسلمين ليسلّم نفسه -بمقتضى المرسوم-، فتحدث عن مكابدة الثوار للجوع، وكيف أن مكيال القمح بات يُبَاع لديهم بثمانية دوقيات، بينما يُقدر مكيال الشعير بست دوقيات،

ولم يعد بالإمكان التحصل عليهما. تم إرسال عدة نسخ من المرسوم، مكتوبةً ومترجمةً إلى اللغة العربية، من ذلك المقر إلى أرجاء مختلفة، لكي يدرك الثوار فحواه بشكل أفضل[٣٠]. كانت المؤن قد نفدت في نهر المنصورة، وبات لزامًا أن ينتقل الجيش إلى بادوليس في أندرش، حيث كان السيد خوان دي أوستريا ينتوي المكوث لعدة أيام، نظرًا لكونه مكانًا ملائمًا لعقد مباحثات السلام أو استئناف الحرب. لذا فقد أمر السيد خوان كافة الموردين والمندوبين المكلفين بأمر المؤن بأن يبعثوا ببعضها إلى الجيش، وذلك من كل من: غرناطة وجيّان وبسطة وأبدة وكاثورلا وبقاع أخرى، على أن يتم إرسالها برًا عن طريق وادي آش؛ أما مورّدو مالقة وقرطاجنة فعليهم إرسال المؤن بحرًا إلى بلدة أدرا.

إذا ما تركنا نهر ألمرية على الجانب الأيسر، فقد توجه السيد خوان دي أوستريا في ثاني أيام شهر مايو ليسلك طريقًا بالغ الوعورة والصعوبة -نظرًا لأن الجزء الأكبر منه تشكّله المرتفعات-، وذلك من أجل أن يتمركز الجيش في بادوليس. كان ذلك الموضع يبعد مسافة فرسخين صغيرين من أندرش، وخمسة فراسخ من أوخيخار، وثلاثة فراسخ من ميناء رباح، وخمسة فراسخ من فينيانا، وثمانية فراسخ من ألمرية، كما كان يقع على بعد خمسة فراسخ أخرى من كل من بيرخا وداليّاس. وهنالك حط الجيش رحاله، حيث تراءى لأعضاء المجلس أنه ليس من الملائم المضي قدمًا، نظرًا للعائق الكبير الذي شكّلته الأمتعة ووعورة الأراضي؛ كما أن الأعداء كان لديهم ميزة تتمثل في أنهم إذا ما فقدوا أحد المواقع، فبمقدورهم الانتقال إلى موضع آخر، دون أن يتكبدوا خسائر، ومن الممكن أن يلحقوا بجيشنا الخسائر. علاوةً على ذلك فإن المكان كان ملائمًا للغاية على ضوء الأوضاع الراهنة وما كنا نسعى إلى تحقيقه. إلى جانب كون الأرض عامرة بالأشجار، وبها وفرة من المياه، وهي تتميز أيضًا بموقعها الذي يقبل

(٣٠) هذا يؤكد أن العربية -لا الإسبانية- ظلت لغة التخاطب والقراءة بين الموريسكيين حتى عام ١٥٧٠ على الأقل. (المراجع)

إمكانية تحصينه بالقليل من الجهد؛ وهو ما بات أمرًا ذا أهمية بالغة من أجل حشد المؤن والجيش داخل البلدة، في أثناء خروج وحدات الجيش لتفقد الأراضي أو مرافقة مواكب الإمدادات، التي كان لابد وأن تكون ضخمةً ومصحوبةً برقابة لصيقة من المحاربين؛ وذلك لتبديد آمال الثوار في إمكانية قطع طريقها، والاستيلاء على المؤن التي تجلبها، على النحو الذي قاموا به في مرات سابقة.

كان المخطط الذي وضعه السيد خوان دي أوستريا يتمثل في أن يبعث من ذلك المعسكر بأربعة أو خمسة آلاف من المشاة، مع مائتين من الفرسان، حاملين أجربةً ومن دون أمتعة؛ وذلك من أجل أن يقوموا بتفقد الجبل في المناطق التي تبدو لهم أكثر ملائمة، على مدار خمسة أو ستة أيام، والتوغل إلى الداخل قدر استطاعتهم، وإلحاق أكبر قدر من الضرر بالثوار، ما لم يبادروا بالحضور لتسليم أنفسهم. لم يكن بالإمكان تلافي إحداث خسائر فادحة للثوار، نظرًا لوجود دوق سيسا في أدرا، التي تقع على بعد ثلاثة فراسخ من أوخيخار، وأربعة فراسخ من بالور، وثلاثة فراسخ من لوكاينينا، وأربعة فراسخ من بوكيّرة؛ مما أتاح للمقاتلين غير المنتمين إلى كتائب إحداث الأثر ذاته في البشرات، وتقديم بعضهم يد العون إلى البعض الآخر إذا ما دعتهم الضرورة إلى ذلك. في اليوم الذي بلغ فيه الجيش بادوليس، ألفى أعدادًا من المسلمين موجودة في الكهوف المطلة على النهر، والكائنة أسفل البلدة والمعسكر ذاته. ولمّا كانوا يتحصنون بداخلها لكونها منيعة، كما أنها تقع بين صخور شديدة الارتفاع، فقد أمر السيد خوان دي أوستريا بمحاربتهم، وذلك باستخدام القنابل وأسحة المدفعية في آن واحد والسلالم -وفقًا لما تقتضيه تضاريس كل منها-؛ مما أسفر عنه قتل كافة المسلمين الذين كانوا بداخلها أو وقوعهم في الأسر، مع حدوث خسائر بين صفوف المقاتلين.

في اليوم السادس من شهر مايو وصل أحد المسلمين إلى بادوليس، حاملاً رسالة من الحبقي موجهة إلى السيد ألونسو دي غرانادا بينيغاس، في إطار المفاوضات التي كانت تجري بشأن الاستسلام. كان فحوى الرسالة يدور حول قدوم الحبقي مع قادة

الثوار الرئيسيين إلى بلدة فوندون الكائنة بأندرش -والتى تقع على مسافة فرسخ من بادوليس-، وبعد أن يقوم بتسليم رهائن من جانبه، فسوف يرافقهم الفرسان المكلفون بملاقاتهم. تم تنبيه السيد خوان دى أوستريا فى اليوم التالى إلى وجود فرق عديدة من المسلمين فى جبلى بسطة وفيلابريس، وأنه يصاحبهم ابن مكنون -ولد بويرتو كارّيرو قائد خيرغال-، والمساحلى Moxahali، والنيغرو (الأسود) قائد ألمرية -الذى يلقبونه بأندريس دى أراغون Andrés de Aragón. وأنهم يجوبون الأرض ويحدثون بها خسائر. وانطلاقًا من رغبة السيد خوان فى معاقبتهم، أرسل السيد بدرو دى باديًا فى ألف ومائتين من جنود وحدات الجيش الإسبانى التابعة له، والسيد دييغو دى أرغوتى فى سبعين من الرمّاحين القرطبيين وثلاثين من رمّاحى إيثيخا، من أجل أن يستطلعوا الجبل ويلحقوا بهم أكبر قدر ممكن من الخسائر.

ظلت تلك القوات تسير من بقعة إلى أخرى على مدار ثلاثة أيام دون أن يحالف المرشدون التوفيق، ويتسنى لهم اقتيادها للإغارة على الأعداء، إلى أن تصادف اكتشافهم لأنوار صادرة من واد سحيق فى إحدى الليالى. مضى الرجال صوبها، ومع بزوغ الفجر هجموا على موضع يقع بالقرب من بعض عيون المياه، حيث كان يوجد ما يزيد على ثلاثة آلاف مسلم، وأعداد ضخمة من النساء، ورؤوس الماشية، والكثير من المتاع. تصدى رجالنا لهم، وخاضوا معركة حامية الوطيس، توفى خلالها بعض الجنود وتم جرح الكثيرين؛ لكن فى النهاية تحلى القادة بالشجاعة الفائقة، فقتلوا ما يربو على أربعمائة من المسلمين، وألحقوا بهم الهزيمة، وحملوهم على الفرار، واستولوا على النساء والمواشى والأمتعة؛ ثم قاموا بتجميع الغنائم، وبادروا بالرجوع إلى المعسكر بعد أن أسروا ما يربو على خمسة آلاف أسير[٣١]. بيد أن الأمور لم تسر على النحو الذى حسبوه، لأن المسلمين عاودوا تشكيل صفوفهم، وانقضوا على مؤخرة الجيش؛ فقتلوا

(٣١) إذا كان عدد الموريسكيين ثلاثة آلاف قتل منهم أربعمائة، فلا ندرى كيف تمكن جيش المسيحيين من أسر خمسة آلاف. (المراجع)

اثنى عشر من حملة الدروع -سبعة من قرطبة وخمسة من إيثيخا- بالإضافة إلى العديد من الجنود المتميزين للغاية، كما استردوا القدر الأكبر من الغنائم، التى كانت بكميات ضخمة للغاية، وتشغل مساحات شاسعة من الطريق حتى أنهم لم يقدروا على حمايتها كلها. كان من الممكن أن يصير الضرر أكبر بكثير لو لم يهرع القادة لصد الحملة الشرسة التى شنها علينا الأعداء، وإجبارهم على التراجع. وقد استطاعوا انقاذ ألف ومائة من الأسيرات اللواتى كن يسرن فى طليعة الجيش، علاوةً على كميات من الأمتعة والمواشى، ورجعوا بها إلى بادوليس.

الفصل التاسع والعشرون

يتناول كيفية احتلال دوق سيسا لكاستيل دى فيرّو.

كنا قد تناولنا فى الفصل السادس عشر من هذا الكتاب كيف توجه دوق سيسا إلى أدرا من أجل الإغارة على كاستيل دى فيرّو. حيث حمل الدوق الرجال على متن تسع عشرة سفينة شراعية تابعة للسيد سانشو دى ليبيا وإحدى السفن، ليبحر من ذلك الميناء فى يوم الثامن والعشرين من شهر إبريل. وفى اليوم ذاته سلمه أحد الجنود رسالةً مكتوبةً باللغة العربية، كان قد استولى عليها -وفقًا لأقواله- من أحد المسلمين. كانت الرسالة موجهة من قائد كاستيل دى فيرّو إلى شمال إفريقيا، وقد حوت بيانًا بأسلحة المدفعية والقوات الموجودة بحوزته فى القلعة، والتحصينات التى كان يقوم بها للحيلولة دون تمكن المسيحيين من الظفر بها. كما طالب فيها زعماء المسلمين والأتراك فى إلحاف شديد أن يرسو بمراكبهم فى ذلك الميناء، قائلاً إنهم سيضحوا هناك بمأمن من المسيحيين، وسوف يتسنى لهم نصب قواعدهم.

سر الدوق كثيرًا لوقوع الرسالة بين يديه، وبمجرد بلوغه كاستيل دى فيرّو فى ذلك اليوم قام بإنزال الرجال من على متن السفن إلى الشاطئ الشرقى الذى يسمى باراريكى Pararique، وكان ذلك الموضع بمعزل عن مدفعية القلعة. ثم أمر باحتلال أحد الجبال التى تطل على المحل، وكان الأعداء قد شرعوا فى إقامة حصن هناك، وكانت لديهم كميات من الجير والرمال والحجارة تم تجميعها من أجل ذلك الغرض. فرفع الدوق قطعتين من أسلحة المدفعية أعلى الجبل بعد جهود مضنية، نظرًا لوعورة التضاريس، وبدأ فى قصف دفاعات البلدة. أبدى المسلمون تصميمًا على عدم الاستسلام،

وبادلوا رجالنا القصف بإحدى قطع المدفعية الثقيلة، وبعض المدافع الأخرى من الحجم الصغير التى كانت لديهم. أما الحسين الذى كان قد اشترى القلعة -على النحو الذى أسلفناه-، فإنه حينما شهد تخاذلاً من قبل أحد المسلمين، الذى قال إنه ليس بمقدورهم الدفاع عن المكان، وأنه من الأفضل لهم تسليم أنفسهم، ألقاه حيًا من أعلى السور؛ وقال إنه سيفعل الأمر ذاته مع كل من يسعى لتسليم القلعة إلى المسيحيين.

فى اليوم التالى أصدر دوق سيسا أوامره برفع قطعتين أخريين من قطع المدفعية الثقيلة، وواصل الجنود بواسطتهما القصف على نحو أكثر تعمداً، وقد تعطلت القطعة الرئيسية التى كان الأعداء يقصفون قواتنا من خلالها. فى ذلك الوقت نفدت الذخيرة، فأمر الدوق بصنع غطائين من أخشاب ممرات السفن التى يطلق منها الجنود النيران، وذلك لثقب سور القلعة. وقد أرسل فى العاشرة مساءً من يتفقد الموقع الذى ينبغى استهدافه، فالتقى المستكشفون بالحسين، الذى كان قد خاب أمله فى إمكانية التصدى للمسيحيين، فخرج فى ثلاثين من الرجال للاحتماء بالجبل؛ فاعتقلت قواتنا بعضاً منهم، بينما ألقى الآخرون بأنفسهم فى البحر، وأخذوا يسبحون صوب جبل صغير يبرز على الساحل من جهة مطريل؛ أما الحسين فقد لقى حتفه هو وشيخ مسلم آخر من أهالى غرناطة يدعى التيبيلى[٣٢] Taibili.

فى تلك الليلة ذاتها، أجرت قواتنا حوارات مع المسلمين الذين ظلوا داخل القلعة، والذين بادروا فيما بعد إلى الاستسلام. أما الدوق، فقد أبقى على حياتهم ولم يرسلهم للتجديف فى السفن[٣٣]، وذلك للحيلولة دون أن ينتهى به الأمر إلى هدم القلعة. وقد أصدر أوامره إلى كل من: السيد خوان دى مندوثا، وماركيز فابارا، والسيد خوان نينيو دى غيبارا -قائد قوات المشاة التابعة لمدينة طليطلة- بالصعود إليها واحتلالها؛ وقد تم ترميم القلعة، وإعادتها إلى سلطة المسيحيين فى اليوم الثانى من شهر مايو.

---

(٣٢) هذا لقب عائلة مؤلف موريسكى شهير، له كتابات باللغة الإسبانية فى شرح العقيدة الإسلامية. (المراجع)

(٣٣) كان التجديف يمثل إحدى العقوبات التى يمكن أن ينفذها الأسير. (المراجع)

فيما يتعلق بالأتراك الذين كانوا فى داخل القلعة، فقد قام القائد بتوزيعهم على القادة والنبلاء الذين تراءى له أنهم بذلوا مجهودات فى هذا الصدد. كما قام بتحويل مسلمى تلك الأراضى إلى محاكم التفتيش، لكى تتولى معاقبتهم بمقتضى الآثام التى اقترفوها؛ أما من سعوا لمغادرة البلدة، فقد أمر بشنقهم حتى يضحوا عبرةً للآخـرين، على أن يتم دفع عشرين دوقيـة من قبـل جلالة الملك تُدفع إلى كل شخص أسر موريسكيًا؛ كما صدرت الأوامر بتقسيم الموريسكيات والمتاع بأكمله بين المقاتلين.

فى أعقاب الظفر بكاستيل دى فيرّو، أبحر السيد سانشو دى ليبيا بالسفن لجلب المؤن من مالقة للبلدة وللجيش، وكان هناك نقص شديد بها بالفعل. نظراً لتأخر السيد سانشو فى الرحلة لمدة خمسة أيام، فقد كان من الضرورى أن يحدث تفكيك للجيش بالكلية، بسبب الحاجة التى كان يعانى منها الجنود، وخاصةً نقص المـاء. حيث بات لزاماً التوجه إلى إحدى عيون المياه التى تبعد مسافة نصف فرسخ من المعسكر لجلبها، وهكذا لم يقو الدوق أو القادة على الحيلولة دون انفصال الجنود عن الركب وذهابهم فى سرايا إلى أورخيبا ومطريل؛ وقد قتل المسلمون الكثيرين منهم فى أثناء الطريق. فى تلك الآونة وصلت سفينتان تقلان أتراك على مشارف كاستيل دى فيرّو فى أثناء الليل، وأرسل من على متنهما إشارات، ظنًا منهم أن القلعة ما زالت فى يد المسلمين. على الرغم من أن أحداً لم يجبهم، فقد وصلوا إلى الساحل، وهبطوا على الشاطئ دون أن تعير أبراج المراقبة ذلك المشهد الاهتمام؛ لأن الجنود لدى مشاهدتهم لرسو هاتين السفينتين، اعتقدوا أنهما ضمن المراكب التى كانت قد أتت بالإمدادات فى ذات اليوم من المنكب ومطريل وشلوبانية. صعد خمسة عشر من الأتراك إلى القلعة، وحينما بلغوا دوريات الحراسة وأدركوا أنها مؤلفة من مسيحيين، رجعوا على أعقابهم وفروا إلى السفينتين؛ فصعدوا على متنهما، ثم استقلوا مركبًا كانت قادمة من مطريل وغادروا المكان دون أن يلحق بهم أذى، بعد أن خلّفوا وراءهم جيشنا بأسره شاهراً للأسلحة. وقد استقل الجيش السفن للعودة إلى أدرا فى اليوم الثامن من شهر مايو، بعد الإبقاء على القائد خوان دى بورخا Juan de Borja ومائة من الجنود كحامية فى تلك القلعة.

الفصل الثلاثون

يتناول التقدم الذى أحرزه جيش دوق سيسا منذ عودته إلى أدرا حتى التقائه بجيش السيد خوان دى أوستريا.

لم تكن الصعوبات التى تعرض لها دوق سيسا فى أعقاب عودته إلى أدرا بأقل مما واجهه فى الماضى، نظراً لنقص المؤن، وللأمراض التى ألمت بالجنود، وهروبهم من المعسكر، حيث كانوا يفرون بشكل يومى عن طريق البر والبحر دون أن يتسنى له توقيفهم. كان المسلمون فى تلك الآونة على طرفى النقيض إلى حد بعيد: ففى الوقت الذى كان البعض يأتون فيه لتسليم أنفسهم -بعد أن اضطرتهم الحاجة إلى ذلك-، كان آخرون يجوبون الأرجاء محدثين أكبر قدر ممكن من الخسائر؛ فلم يكونوا يفوّتون فرصة أو مناسبة تسمح لهم بالإضرار بالمسيحيين، حتى لم يعد أى فرد أو متاع يغادر المعسكر وينفصل عنه دون أن يأسروه أو يقتلوه. أما أكبر الصعوبات على الإطلاق فكان السخط الذى يعانى منه رجالنا نظراً لحرمانهم من القيام بغارات؛ وهو الأمر الذى كان يمنعه الدوق، ليس لأنه كانت تنقصه الرغبة فى معاقبة الثوار -فهو دوماً ما كان يتبنى ذلك الرأى-، وإنما لتلافى الأضرار التى كان من الممكن أن يلحقوها بالمستسلمين. تضاءل حجم الجيش إلى حد كبير على أثر كل تلك الأسباب، حيث لم يبق من العشرة آلاف رجل الذين دخلوا إلى البشرات سوى أربعة آلاف، وحتى هؤلاء كانوا آخذين فى هجر الجيش يومياً بأسرع ما يمكن.

مضى الجيش إلى بلدة داليّاس، ومكث بها لعدة أيام، حيث أتى العديد من المسلمين من سائر بقاع البشرات لتسليم أنفسهم وفقًا للمرسوم؛ ومن لم يتسن لهم المجىء

منحوا تفويضًا بذلك إلى الحبقى بوصفه القائم على إحلال السلام. أسهمت المياه المنعشة العذبة الموجودة فى عيون تلك البلدة فى استعادة الرجال لقواهم فى ذلك المعسكر، لكن إبان مغادرتهم إياها إلى بيرخا -حيث كان يتعين عليهم الحضور لتوفير المزيد من الحماية لمواكب الإمدادات القادمة من أدرا إلى جيش السيد خوان دى أوستريا- تسببت المياه الرديئة والساخنة لتلك الطاعة، والأجواء الحارة التى كان لهيبها يزداد يومًا تلو الآخر، فى ظهور عدة أمراض، مما أسفر عن وفاة الكثير من الرجال. كان ذلك هو السبب وراء الرغبة العارمة التى انتابت الماركيز لانضمام الجيشين معًا، وقد ألح فى المطالبة بذلك قبل أن يفنى جيشه عن آخره.

فى تلك الآونة حدث أن أحد مسلمي شمال إفريقيا من جواسيس ابن عبو، وكان يتحدث اللغة القشتالية بطلاقة شديدة، ويعمل جنديًا فى إحدى فرق المشاة، قد أقنع نفرًا من الجنود الذين كانوا عازمين على مغادرة الجيش، وقال لهم إن له دراية واسعة بتلك الأراضى، وإن بوسعه اقتيادهم عبر البشرات بأسرها فى مأمن من المسلمين والمسيحيين؛ وقد طالبهم بمقابل نظير مجهوداته وخطته، لكى يضفى المزيد من المصداقية على الأمر. صدق الجنود -الذين كان عددهم يربو على السبعين- كلامه، وعرضوا عليه أن يمنحه كل منهم ريالاً؛ فما كان من الخائن الأثيم، بعد أن أخذ منهم العهود، إلا أن أحاط ابن عبو علمًا بالطريق الذى سيسلكونه، لكى يقطع المسلمون عليهم الطريق. غادر الجنود المعسكر بحلول الليل، حيث اقتادهم المسلم صوب ميثينا دى بومبارون.

وردت أنباء إلى الدوق حول ذهاب الجنود، فأرسل على أثرهم لوائين من الفرسان وفرقتين من المشاة. بيد أنهم لم يقووا على جعلهم راغبين فى العودة طواعيةً أو كرهًا، بل إن الجنود قد ذادوا عن أنفسهم فى عزم شديد، حتى أن الفرق اضطرت إلى الرجوع إلى المعسكر دون إحداث الأثر المرجو، نظرًا لعدم رغبتهم فى إراقة دمائهم. أما هؤلاء، فما أن وصلوا على مقربة من ميثينا دى بومبارون، مسترشدين بمستشارهم الزائف، حتى وقعوا فى كمين كان ابن عبو قد نصبه لهم، فتعرضوا جميعًا للموت أو الأسر. خلال تلك الأيام كان قد حضر قائد مسلم من أهالى بيرخا يدعى بيثينى، مع ثلاثمائة

من الجنود المسلحين بالبنادق، إلى معسكر الدوق، ساعيًا إلى أن يستسلم، وأن ينفى عن نفسه الأقوال التى وصلت إليه، عما أثير عن تورطه فى إرسال مسلمين ليلاً لقتل المسيحيين وسرقة الخيول والأمتعة التى تنفصل عن المعسكر. وقد عرض على الدوق أن يجلب إليه خمسة آلاف أو ستة آلاف شخص للدخول تحت راية جلالة الملك، كما أكد إليه أن الأضرار الحادثة لم تكن بناء على موافقة منه، بل إنه شنق مسلمين ممن اقترفوا تلك الأمور بعد تحقيق مصغر للغاية.

أمر الدوق بالإحسان إليه ومعاملته على نحو جيد، وعندما حان الوقت لعودته إلى حيث ترك رجاله، أرسل الدوق معه خمسين من الفرسان لتأمينه. بيد أن البيثينى لم يشأ أن يسلم نفسه لاحقًا، حيث تراءى له أن المنحى الذى تسلكه مفاوضات الاستسلام لا ينبئ عن أنه سينال خيرًا. فحشد رفاقه وقال لهم: "أيها الإخوة، إن المسيحيين يرمقوننا بكره بالغ، وقد ضاعت الأرض من بين أيدينا، ومن السيئ أن نبقى فيها كأعداء، ومن الأسوأ أن نظل كأصدقاء. وأنا أرى أن نلزم جانب الحذر، وإذا ما فقدنا نساءنا وأبناءنا، فسوف نجد نساء أخريات وسيكون بمقدورنا إنجاب أبناء آخرين أينما حللنا". وفى غضون أيام قلائل مضى بهم إلى شمال إفريقيا فى عدد من قوارب الأتراك التى أتت إلى الساحل. فى أثناء وجود دوق سيسا فى ذلك المعسكر كتب إليه السيد خوان دى أوستريا يخبره بحاجته إلى مقابلته للتباحث حول بعض الأمور الضرورية لخدمة جلالة الملك، فأجابه بأنه سيحضر لتقبيل يديه. وهكذا التقى الاثنان عند مفرق الطريق، واجتمعا فى الضيعة التى يطلق عليها لياندرو **Leandro** أو خوان كاباييرو **Juan Caballero**، حيث تناولا الطعام وتدارسا شئون الحرب، ثم قفلا من هناك عائدين إلى معسكريهما. توجه السيد خوان دى أوستريا إلى بادوليس فى أندرش، بينما توجه دوق سيسا إلى بيرخا؛ ولم يمض وقت طويل حتى غادر ذلك المأوى وذهب للانضمام إلى السيد خوان فى بادوليس، ومنذ ذلك الوقت بات يخدم على مقربة منه.